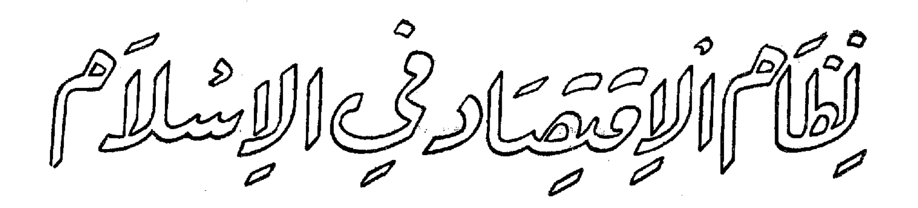
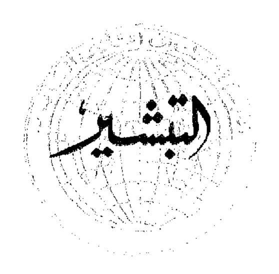
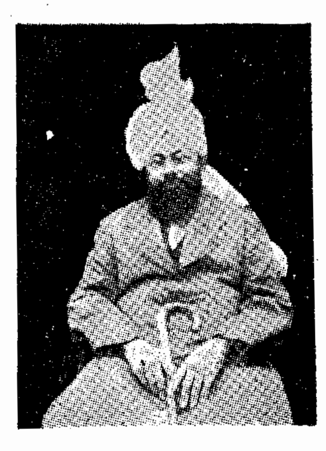


لحضرة الامام الفقيد الحاج ميرزا بشير الدين محمود احمد رضى الله عنه



احد مطبوعات التبشير (الاحمدية)
ربوة باكستان



حضرة الامام الفقيد الحاج ميرزا بشيرالدين محمود احمد ولد في ١٨٨٩، وتوفى في ١٩٦٥، نجل قداسة مؤسس الحركة الاحمدية حضرة ميرزا غلام احمد الذى ولد في ١٨٣٥، و توفى في ١٩٠٨، و صار خليفته الثانى و نائبه وهو ابن ٢٥ عاما ، و بعد ذلك هو قاد هذه الحركة القائمة على التبشير بالاسلام المعاصر نحو ٥٢ عاما ، و ظل متفانيا في سبيل تحقيق الغايات التى أسست الحركة لأجلها ، خطيبا ، كاتبا متحديا باسم الاسلام و مؤسسا لهيئات و ادارات للدفاع عن الاسلام و الدعاية له ، ان جهوده الحثيثة و خططه الفعالة نهضت بالحركة الى سعتها الحالية وتأثيرها وأهميتها الراهنة ، ان أهمية أعماله نطاقها الواسع لايزال ينتظر التقدير و التحديد ، لكن مع ذلك لامجال للشك في أن تأثير شخصيته في الجيل المعاصر لأعمق ما يكون و أرسخ ، و أضف الى ذلك ماتمكن به من الحب والاخلاص في ملايين القلوب ، من الأتباع و الأصدقاء ، و الأقارب ، و العلماء و الساسة و الطلاب و هلم جرا .

ان انتاجه لغزير - ان قائمة لمحاضراته و خطباته للجمعة وغيرها ، و مؤلفاته ستعد فيما بعد باهتمام زائد - لكن يمكن أن نقدر أعماله الجمة بتفسيريه للقرآن الحكيم ، أحدهما يسمى بالتفسير الكبير المتوسع ، و الثانى يدعى التفسير الصغير الوجيز كل ذلك في سبعة آلاف صفحة بلغة فصيحة واضحة ، و علاوة على ذلك نشرت تحت اشرافه الشخصى و تعليماته الخاصة خمسة مجلدات من تفسير القران و ترجمته الى الانجليزية ، التى كتب لها حضرته مقدمة مستفيضة ، نشرت فيما بعد بصورة كتاب منفصل باسم "مقدمة لدراسة القرآن الحكيم" طبع و نشر بلندن ١٩٤٩ .

نظام الاقتصاد في الإسلام

لحضرة الامام الفقيه الحاج ميرزا بشير الدين محمود احمد رضي الله عنه

تعريب

مبارك احمد ملك

احد مطبوعات التبشير الاحمدية
ربوه باكستان

الطبعة الاولى

عدد الطبع ٣٠٠٠



طبعه : الشيخ نويد احمد الاحمدي
بمطبعته : سنرائيز پرنٹرز ، لاهور ، الباكستان

كلمة الناشر

إن ”نظام الاقتصاد فى الاسلام،، تعريب خطبة أردوية ألقاها حضرة امامنا الفقيد الحاج ميرزا بشير الدين محمود احمد رضي الله عنه في مجتمع من المثقفين بلاهور في ١٩٤٥ م .

إن هذا الكتاب يتناول مبادئ كلتا النظريتين الاسلامية و الشيوعية بالبحث العميق الشامل، و يحدد قيمتها النسبية مع إيضاح العلل الاقتصادية التى تواجهها الانسانية في هذه الأيام.

إن الحقيقة التي يدعمها هذا الكتاب بشواهد قاطعة، هى أن الشيوعية قد فشلت في ادعائها بتأسيس مجتمع حر من الطبقات بريء من المساوئ الراهنة في البلاد الرأسالية.

و أضف إلى ذلك أن الكتاب يزيح الستار عن الاضرار الكامنه في سياسة السلطة الحكومية على جميع الممتلكات ، و يبين أن الشيوعيــة بحظر الحرية الفردينة و الكفاح الشخصى، تحول الانسانية الى مجرد محركات تلقائية من جهة ، و من ناحية أخرى ، إنها بعزمها على إنشاء رأسالية حكومية ، تشكل تهديدا واضحا لكيان النظم الاقتصادية في العالم الحر.

لكن أعظم خطر تتهدد به الشيوعية حضارتنا المعاصرة لهو اتجاهها المتعنت نحو الدين.

إن نظرية الالوهية مع القيم الروحية و الاخلاقية النابعة منها باطلة لا معنى لها عند الشيوعية ، و هي قامت علنا لتدمير هذا التراث الأعز لدينا ، وتهدف الى تأسيس قصرها المنهار على أنقاض هذا التراث .

ان الكفر بالله كفر بحقيقة مسلمة، و إن دفع الانسانية عنوة نحو هذا الالحاد ، لهو أشنع اضطهاد ، إن مؤلف هذا الكتاب المتشرف بالوحي السماوي يدعى علمنا بأن الله عز و علا سوف يدمر الشيوعية كعقاب لهذه الجريمة الشنعاء ، و سيشيد على حطامها بناء الاسلام .

إن نبأ حزقيل قبل ألفى سنة ، قد قدم كدليل على ذلك ، إن حضرة حزقيل تنبأ بهذا النبأ حينما لم تكن لروسيا أتفه أهمية في التاريخ . إنه تنبأ أن روسيا ستصبح في يوم من الأيام من أقوى الدول في العالم ، و أن مصيرها النهائي الذى ستلقاه حتما ، هو التدمير بيد الله عز و علا الذى حاولت الشيوعية الاعتداء على وجوده ، إن أنباء حضرة مؤسس الاسلام صلى الله عليه و سلم ، و أنباء مؤسس الحركة الاسلامية الأحمدية في هذا العصر قد سجلت أيضا كدليل على ذلك .

أما بصدد نظام الاقتصاد في الاسلام، فان هذا الكتاب ينتهى من البحث فيه ، بأن الاسلام يجمع بين الجهود الحرة و بين السيطرة الحكومية بطريق عادل سليم ، بحيث يتضمن كل ما هو خير فيها ، و يتجنب كل ما هو شر فيها .

إننا نشكر جميع الأحباء الذين ساهموا في نشر هذا الكتاب و بخاصة الاستاذ مبارك احمد ملك الذى قام بأعباء ترجمته الى العربية .

مرزا مبارك احمد
وكيل التبشير للتحريك الجديد
ربوة ــ باكستان الغربية

فهرس الـــكتاب

صحيفة

صحيفة

صحيفة



نحمده ونصلي على رسوله الكريم

نظام الاقتصاد فى الاسلام

أهمية الموضوع

إن خطبتى اليوم حول نظام الاقتصاد فى الاسلام ، هـذا الموضوع أوسع و أصعب من أن نحيط به بيانا فى هذا الوقت القصير . و إن تقديم قضية ، و هي بمعزل عن محيطها الاساسى ، قد يؤدي الى إبهامها و ينال من قيمتها العلمية . غير أنني رغم ذلك سأسعي لأن أقدم لكم '' نظام الاقتصاد في الاسلام ،، و ما يتصل به من لوازم بيئته ، و ما يرتبط به من مبادئ أساسية ، بايجاز يساعدكم على الاستفادة منه ، بما أن نظام الاقتصاد في الاسلام متألف بصورة تشبه من جهة ذلك النظام الذي يدعى اليوم بالشيوعية ، فلذا أري أن مقالتي اليوم ستكون ناقصة إذا لم أتناول هذه الحركة المتطرفة من وجهة نظر الاسلام و أحدد الفوارق بين الاقتصاد الاسلامى و نظام الاقتصاد الشيوعى .

لا يغيبن عنكم أن الفروع كما تخرج من أصول شجرتها كذلك المسائل المختلفة تستنبط من المبادئ الاساسية المقررة من قبل ، و يتعذر على الناس فهم الفروع بدون مراعاة تلك الاسس ، فلذا أري لزاما على قبل أن أدخل في صميم الموضوع أن أتناول أسس النظام الاجتماعي الشامل للاسلام بايجاز :

أسس نظام الاسلام العام

إن الاسلام يؤسس جميع أنظمته السياسية و الاقتصادية و التمدنية و غيرها من سائر الانواع على أن الملك و المالكية بيد الله وحده ، كما يقول عز و جل :

تبارك الذي له ملك السموات و الارض و ما بينهما و عنده علم الساعة و اليه ترجعون .

قد صرح الله في هذه الآية أن السماء و الارض كلتيهما بملك الله تعالى ، و كل ما فيهما من المخلوق مرجعه و منتهاه لالى الله عز و جل .

و إذا جعل أحد راعيا لشيء او اؤتمن به، فانه مسئول عن القيام بواجب الرعاية و أداء الامانة عند صاحب الامانة ، لكن الذي هو حر ، يظن أنه يستطيع أن يفعل ما يريد و أنه ليس بمسئول عند أحد . فالقرآن يصرح في هذه الآية أن جميع الحكومات و الممالك و السلطات بما أنها بيد الله وحده ، و أنها وديعة له عند الانسان ، فلذا لا يمكن للناس أن يعدوا أنفسهم أحرارا طلقاء في ممالكهم و ممتلكاتهم . إنهم ملوك ببادئ النظر ، لكنهم في الواقع رعاة عن الله عز و علا ، لذلك إنهم مسئولون عند الله عن الاداء العادل لهذه الامانات .

وجهة نظر الاسلام فى الحكومة و المملكة

ثم القرآن المجيد يصرح أيضا أن المملكة إنما هي وديعة الله و ملكه بيد الناس ، و ليس لأحد أن يملكها كحق شخصي ، كما يقول عز و علا :

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء و تنزع الملك
ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء بيدك الخير ،
إنك على كل شيء قدير .

إن هذه الآية لتصرح أن الحكم إذا تولاه رجل ، فانما هو وديعة بيده ، و لا يعنى ذلك أن كل ملك و متسلط مهما كان جبارا مستبدا أو فاجرا خليعا ، هو ممثل الله في هذه الارض في جميع الاحوال ، بل المراد به أن الوسائل المؤدية الى الحكم مهيأة من الله عز و جل، فان يتول أحد الحكم ، فانما يناله باستخدام الوسائل السماوية ، فاذا كان الحكم يوهب من الله عز و جل ، فكل من يلقي الحكم او السلطة ، فانما يمكن أن يسمى وكيل الله و متوليه على أكثر تقدير ، و ليس هو بحاكم مختار أو مالك مستقل ، إنما السلطة العليا و الحاكم النهائى هو الله وحده عز و علا على كل حال، كل حاكم ملكا كان أو دكتاتورا أو كانت سلطات الحكم بيد حزب من الاحزاب حسب النظام البرلمانى المعروف ، إن هؤلاء مهما نفذوا من دستور ، مسئولون عند الله عن تنفيذ الدستور الذي يختارونه ، فان اندفعوا الى فساد نهي الله عنه ، أو أهملوا ما أمر الله به ، فانهم سيحضرون عند الله كمجرمين ، او بلفظ آخر يساقون إلى مولاهم كما يساق العبد الآبق او الخادم المتمرد الى سيده ، و سيلقون عقاب أعمالهم ملوكا يسمون او دكتاترة يدعون اوبالبرلمان يعرفون ، و ليس معنى هذه الآية أن الذي يتملك يصبح ملكا بأمر الله بل المراد بها ، أنه يسلط على ملك الله في نطاق عمله ، لذلك عليه أن يخضع في حكمه لشرائع الله تعالى ، و ينوب عنه عز و جل في تنفيذ سلطانه ، و إلا كان من العصاة ، غير أن بعض الملوك يتشرفون بالملوكية من قبل الله في الاوضاع الخاصة ،

و هم صالحون عادلون على كل حال ، و مملكتهم إنما تكون دينية و ليست بدنيوية .

الشرائع الاسلامية للحكام

كذلك يقول الله عز و جل عن الحكام و يصف بعضهم قائلا :

إذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل ، و الله لا يحب الفساد . (البقرة)

ای أن في الدنيا حكاما و ملوكا حينما يستولون على الملك ، أعني أنهم يتولون الحكم باستخدام القوى الموهوبة من الله تعالى ، فانهم بدلا من القيام بخدمة الوطن ، و عوضا عن السعى لتوطيد دعائم الامن و إعادة الطمأنية و السكينة الى قلوب الناس ، يلجأون نحو طرق مثيرة لبعض الشعوب على بعض ، و مغرية لبعض القبائل ضد بعض ، و مهيجة لبعض اهل الاديان علي بعض ، و بذلك تصبح البلاد نهبة للفتن و الاضطرابات و الفوضى ، و كذلك إنهم يختارون أساليب هدامة لحضارة البلاد و اقتصادها و التي تتعطل بها الاجيال القادمة .

''الحرث،، المزرعة لغة، لكن الحرث هنا قد استعير لمعان واسعة، و يدل على أن هؤلاء بدلا من أن يتخذوا الوسائل لتقدم الاقتصاد و ازدهار الاموال و تحسين الاوضاع التمدنية ، يضعون القوانين التي تقضي على التمدن ، و تحطم نظام الاقتصاد ، و تؤدى الى ركود الاموال و تجمدها، و بذلك هم يقطعون دابر نهضة الاجيال المقبلة ، و يختلقون سننا تصبح بها الذرارى القادمة عقيمة ، و تحرم من المثل العليا التي يمكن أن تساعدهم على النهضة و التقدم . ثم يقول

عز و جل : و الله لا يحب الفساد ، فلذلك هؤلآء الملوك و الحكام مغضوب عليهم عند الله تعالى و هو يراهم بنظرة الكراهية و الاستصغار .

إن هذه الآية ترجع الى أن الملوك عند الاسلام هم الذين يهيئون وسائل الامن للناس و يسعون لاصلاح وضعهم الاقتصادى و يحفظون نفوسهم من الناحية الصحية و الامتناع عن الحروب العقيمة ، و لايجعلون أفراد شعبهم ضحية للموت بلا أى مبرر، كأن مسئولية المحافظة على الامن و النفوس و الاموال تلقى عند الاسلام على الحكومة و هي متقيدة بأن تراعى مصالح البلد و رعاياها .

التأكيد بالمحافظة على العدل بين الافراد و الشعوب

و كذلك يقول عز و جل في موضع آخر :

إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا .

اي يا أيها الناس إن الله تعالى يوصيكم بأن تؤدوا أمانات الحكومة و حقوقها إذا أتيحت لكم فرصة لاداء هذه الامانات ، الى من هو أحق بها عندكم و أكثر كفاءة لها . ثم يا أيها الذين تسلمتم أمانة الحكم من قبل الرعية إننا إذ أمرنا الرعية بانتخاب أحق الناس بأمانة الحكم و أحسنهم إرشادا للرعية و أكفأهم لتأمين الوسائل لكل نوع من الرقي ، يأمركم أنتم الذين انتخبتم للحكومة و سلم اليكم الناس أمانة الحكم معتمدين عليكم أنكم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، أى إذا كنتم بصدد حكم في قضية فعليكم بالعدل ، فلا ينبغي أن تشرفوا أحدا و تذلوا آخر بلا مبرر،

و ترفعوا قوما و تضعوا آخرين و تزودوا قوما بالتعليم، و تدفعوا آخرين الى هوة الجهل ، و أن تقضوا الحاجات الاقتصادية لأحد و تصرفوا أنظاركم عن الضرورات الاقتصادية لآخر ، بل عليكم بالمساواة و العدل في الحكم بالحقوق و لا تميلوا الى التحيز الجائر . ثم يقول عز و علا : إن الله نعما يعظكم به ، أي أن أمرنا هذا ليس كما يأمر الملوك أحيانا بلا غاية أو حكمة ، يقولون : نحن نريد ذلك و لا بد من إتمامه، إننا لا نأمركم كما يأمر هؤلاء الملوك بلا فكر و لا روية ، بل إننا الخالقون لكم و المالكون ، و لا خير لكم و لا راحة إلا فيما نأمركم به ، و إذا انتخبتم فالأصلح لكم أن تنتخبوا خيار الحكام الذين يقومون بواجبات الحكم خير قيام ، و الذين يقدرون هذه الامانة حق قدرها، و يا أيها الحكام إن تحموا نفوس الناس و تحفظوا أموالهم ، و إن تتمسكوا بالعدل في أحكامكم ، و إذا لم تفرقوا بين الافراد و الشعوب بالتفضيل، و إن تسووا بين الصغار و الكبار في المعاملة ، و إلا تبرحوا ساعين لاصلاح الحالة الاجتماعية للبلد ، و إلا تتبعوا الملوك الذين يعزون أحدا و يذلون آخر بلا داع ، و يعاقبون أحدا بلا مبرر و يراعون آخر بغير حق ، فاذا كنتم كذلك فلستم تحققون أوامرنا فحسب ، بل كان ذلك خيرا لعاقبتكم . ثم يقول عز و جل : إن الله كان سميعا بصيرا ، أي أن الله وجد أن الجماهير ديسوا تحت أقدام الملوك الغاشمين و دمروا تدميرا ، و الملوك جعلوهم عرضة للقسوة و الاضطهاد و رفضوا حقوقهم رفضا باتا بالغا غاية القسوة ، و لقد ندد الله هذه الظروف و لم تحتمل غيرته عز و علا أن لا ينفك بنو الانسان رازحين تحت أفدح الظلم و أن يطلق الحكام سراح أهوائهم الشخصية ، فأراد أن يرشد الناس في هذا المجال ، و لذلك لما بلغ الظلم أشده و اصطرخ الناس مستغيثين بنا : اللهم قد سلط علينا حكام لا يقيمون لحقوقنا وزنا ، فعندئذ قرر الله تعالى أن تتضمن شريعته حكما

حاسما بوجوب انتخاب الحكام المطبوعين على العدل و الانصاف مستأهلين للحكومة ، كذلك أوصى الله الحكام في شريعته بالتمسك بالعدل و المساواة و بالمساعى الحثيثة في سبيل النهضة الاقتصادية للمملكة ، فعليكم بالمحافظة على نفوس الرعية و أموالها و لاتفضلوا قوما على قوم أو فردا على فرد ، و لا تتخذوا الطرق التي تعرقل تقدم البلاد أو تحطم الاجيال القادمة، بل عليكم باتخاذ الطرق و القوانين المساعدة على رقي البلاد .

تعاليم الاسلام المبدئية الاربعة عن الحكومة

هذا هو المحيط الذي يقدم فيه الاسلام نظامه الاقتصادى ولا يمكن النجاح حتى لأحسن النظم إلا في بيئة ملائمة . إن الاسلام أول دين قدم مبدأ انتخاب الحكومة و أسسها على الكفاءة و الاستحقاق، (٢) و هو الذي لم يجعل الحكومة ملكا بل جعلها أمانة و وديعة، (٣) و هو الذي أقر المحافظة على الاعراض و النفوس هدفا و غاية للحكومة ، (٤) و هو الذي أوصى الحكام بالعدل بين الافراد و الشعوب و جعلهم مسؤولين عند الله .

و جملة القول أن الاسلام لا يقر بملك بالوراثة، هو يصرح و يبين أن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ـــ أي سلموا أمانة الحكم الى أهلها و مستحقيها ، فالاسلام لا يعترف بمملكة وراثية ، بل الحكومة عند الاسلام قائمة على أساس الانتخاب ، فمن الواجب على المسلمين أن يسلموا أمانة الحكم بعد التفكير و النظر الدقيق الى أخيارهم ، و المسلمون ظلوا متمسكين بهذا الاصل ما داموا عاملين على أحكام القرآن . و حينما يحظى المسلمون في المستقبل بالتوفيق للعمل بأحكام القرآن ، سيكون لهم الامر الاول و الاولى أن يقوموا بانتخاب الحكام بأنفسهم . ثم الامر الثاني أن عليهم

أن لا ينتخبوا أحدا لاجل نسبه العالى او لاجل قوته و جبروته ، و لا لأجل ماله و ثروته، و لا لأجل حزبه و أشياعه، بل يجب أن يكون انتخابهم إياه على أنه خير الناس و أصلحهم للحكومة ، و من ناحية أخري قد أوصى الله الحكام بأنه إذا تم انتخابكم فعليكم بالعدل و المساواة . هذه هي الروح التى جعل المسلمين حتى بعد تطرق الملوكية اليهم متجهين نحو مبادئ الجمهورية و العدل .

منظر رائع من تاريخ الاسلام

إن جبون (Gibbon) و هو من أشهر المؤرخين المسيحيين ، قد ألف كتابا في تاريخ دولة الروم هو يسرد عن ملك شاه بن ألب ارسلان أنه كان شابا فتيا عند ما توفى أبوه، و بعد وفاته ادعى كل من أحد أعمامه و ابن عم له و شقيق له بالحكومة ، و احتدم النضال الداخلى . إن نظام الدين الطوسى أحد وزراء ملك شاه أخذه (لأجل تشيع الوزير) الى قبر الامام موسى رضا للدعاء ، و بعد الفراغ من الدعاء سأل الملك وزيره : ما ذا طلبت في الدعاء ، فقال الوزير : أنا طلبت الفتح و الانتصار للملك ، فقال الملك : أنا دعوت الله قائلا : اللهم إن كان أخى أحق منى بالملك ، فاسترجع منى اليوم نفسى أنا و تاجى .

و جبون هذا مؤرخ مسيحي و هو من أشد المؤرخين المسيحيين تعصبا، لكنه مع ذلك يضطر و يسجل بسرد هذا الحادث أنه من المتعذر أن نبحث في صفحات التاريخ عن أنزه و أكرم نظرية من قول هذا الأمير التركى (اى المسلم)، لكن من أين جاءت هذه الروح النبيلة، و لماذا تأصل في قلوب المسلمين و عقولهم أن الحكومة ليست حقا شخصيا لأحد ، بل إنها أمانة يسلمها أهل بلد بأنفسهم الى أصلحهم و أكفأهم لذلك ، ثم على الرجل

المنتخب أن يخضع للعدل و يراعى أداء الحقوق ، ليست هذه الافكار السامية النزيهة و المثل العليا التى نراها في المسلمين إلا بأن القرآن الحكيم كان أودع في عقول المسلمين منذ بداية الاسلام أن الحكومة أمانة لا تؤدى إلا الى من يستحقها بالانتخاب ، و من تولى هذه الامانة فعليه أن يؤدى جميع حقوقها حق التأدية ، و من لم يقم بأداء حقوقها و واجباتها ، سيكون مسئولا عند الله كمجرم ، فان آية : "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها"، كانت نصب أعين المسلمين ، أي سلموا هذه الأمانة الى من يستأهل إدارة شؤون الحكومة ، ثم كان المسلمون عندما يتسلمون هذه الأمانة كانت الأمانة و العدل في الحكومة مطمح أنظارهم دائما، و كانوا يرون أنهم إذا لم يراعوا العدل و الأمانة و خانوا أمانة الحكم فالله محاسبهم حسابا عسيرا ، و أنهم ملاقون جزاء جريمتهم .

اضطراب عمر رضى الله عنه الشديد عند وفاته رغم خدماته الجلى المنقطعة النظير

هذا هو الدافع الذي كان له أثر بليغ في نفس عمر رضي الله عنه حتى لترتعد له فرائص الانسان ، إن عمر رضي الله عنه كان الخليفة الثاني في الاسلام قد قدم لأجل نهضة الاسلام و رقي المسلمين من التضحيات ما جعل الكتاب الأوربيين الذين يوصلون الليل بالنهار في الاعتراضات على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، و الذين يرمونه في كتبهم متعندين بأنه صلى الله عليه و سلم لم يكن أمينا في رسالته ، أجل ، جعلتهم هذه التضحيات العظيمة يعترفون عند ذكر أبي بكر و عمر رضي الله عنهما بأن عاطفة الفداء و الجهود التى بذلها هؤلاء الناس لم يسبق لها مثيل في حكام

الدنيا و يقرون بأن ذلك هو الشخص الذي استغرق ليلا و نهارا في نشر قوانين الاسلام و قام بواجب النهوض بالأمة المسلمة حق القيام، لكن ما بال عمر رضي الله عنه، أنه رغم ألوف الخدمات و التضحيات و مكابدة المشقات و المصائب كان يخضع لآية : إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، اي أنكم إذا توليتم أمرا من قبل الله و انتخبكم بنو وطنكم و إخوانكم للحكومة فعليكم بالعدل و ابذلوا جميع مواهبكم لخير الانسانية و صالحها و ما أشد إيلاما ذلك الحادث الذي حصل عند وفاته إذ اعتدى عليه رجل طائش جاهل بالخنجر، و لما استيقن بموته كان يضطرب عندئذ أشد الاضطراب و يردد : ,, اللهم لا على و لا لى ، اللهم لا على و لا لى ،، ، أي رب كنت وليتني أمر هذه الامة و سلمت الى هذه الامانة فلا أدرى أ أديت حقها أم لا ؟ و الآن حان أجلى و قرب فراقي للدنيا اليك ، رب لا أطلب منك أحسن مما عملت و لا أتمنى أي جائزة ، بل اللهم إنما أطلب أن ترحمنى و تغفر لى، و إن كنت مقصرا في أداء واجبى فاصفح عنى ، إن عمر رضي الله عنه كان رجلا عظيما قلما نجد له نظيرا على وجه هذه البسيطة، لكنه عندما يتوفي و يتفكر في أمر الله عز و جل : ,,و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل،، ، اضطرب عند وفاته أشد الاضطراب حتى استصغر جميع الخدمات التى قام بها لاجل خير البلاد و غض بصره عن تلك الاعمال التى عملها لاجل مصلحة عامة الناس، و احتقر كل أعماله العظيمة التي أداها لاجل نهضة الاسلام و قوته . أجل، إنه استخف و استقل جميع تلك الخدمات التى أعجب بها المسلمون و التى استحسنها حتى الاجانب ، و التي لم ينوه بها مواطنوه و غيرهم فقط ، بل كان يقدرها أهل البلاد الأخرى أيضا، و التى لم يجلها معاصروه فحسب ، بل اليوم أيضا، و بعد مضى ثلاثة عشر قرنا عند ما يتذكر أولئك الذين

لم يستحيوا من الاعتداء على مولى عمر و سيده محمد صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء يذكرون خدمات عمر فيضطرون لأن يعترفوا بأن عمر كان رجلا منقطع النظير . تلك الخدمات الجلى صارت تافهة في عين عمر رضى الله عنه ، حتى قال متضرعا و مبتهلا : اللهم لا علي و لا لى . رب انى اؤتمنت أمانة فلا أعرف أ أديت حقوقها أم لا ؟ فلذا أنا أسئلك أن تغفر لى ذنوبى، و اجنى عن النار .

أهمية البيئة الملائمة

إنى استعرضت ببيئة الاسلام التي نشأ فيها لأنه من المستحيل أن ينجح نظام بغير بيئة مساعدة ـــ خذ مثلاً أجود نوع من النواة و ازرعها في ارض غير ملائمة أو غير صالحة لانباتها ، فلا يمكن أن تنبت تلك الارض شجرة طيبة ، لكن إذا كانت البيئة جيدة نما و ترعرع حتى أتفه أنواع البذر ، فهذا هو المحيط الذي قدمه الاسلام ، و في مثل هذا المحيط يمكن أن ينجح نظام اقتصادى صالح لعامة الناس .

النظم الاقتصادية الثلاثة فى العالم

بعد شرح هذا المحيط أبين أن النظم الاقتصادية في العالم ثلاثة ـــ الاول : نظام اقتصادى غير مبنى على دستور و نطلق عليه اسم الاقتصادى تجوزا ، و إلا نري في الدنيا شعوبا و دولا لم تقرر الاساليب و التي لم تضع لها نظامها إلا كما يلتقط الانسان شيئا في الطريق كذلك هؤلاء الناس عند ما يجدون وسيلة شعبية أو فردية للنهضة الاقتصادية ينتحلونها بلا تفكير و ليست لهم سياسة محدودة . الثاني : هو النظام القومى، أي أن بعض الامم في العالم تختار نظاما اقتصاديا قوميا فقط و هي تدبر نظام الحكومة بحيث ينفع القوم او الشعب من الناحية الاجتماعية . الثالث : هو النظام الاقتصادى

الفردي الذي يتاح فيه للافراد فرصة بذل الجهود الفردية لنهضة البلاد الاقتصادية و السمو بها . العمال يمنح لهم حق الكفاح لأجل حقوقهم و الاثرياء يؤذن لهم بالسعي لحقوقهم ، كذلك الموظفون يستحقون أن يناقشوا رؤساءهم في رواتبهم حتى يوافقوهم، و الرؤساء يحق لهم أن يضعوا قواعد للموظفين ، كأن هذا النظام يؤكد بالجهود الفردية .

هذه هي الانواع الثلاثة للنظام الاقتصادى في العالم اليوم . الاول نظام غير دستورى ، الثاني هو النظام القومى، الثالث النظام الفردى . إن بعضها ليس له دستور و بعضها أساسه على الاسلوب القومى و بعضها يتأسس على نهج الفردية . إن الاسلام لايقر بالنظام غير الدستورى، بل هو يؤسس نظاما دستوريا قويا و يأمر الناس بالانقياد له ، وهو يدعي بمراعاة الحكمة و العقل في كل شيء و لا يقول بالتحرر عن النظام الدستورى باتخاذ أي طريق صادف الانسان . إن مثل أهل الفوضى في النظام الاقتصادى كمثل النبات في الغابات ، لكن الاسلام مثله كصاحب بستان يغرسه غرسا و يسقيه و يحرسه و هو يعرف ما يليق ببستانه فيحرزه و ما لا يلائم بستانه فيهمله .

محيط التعليمات الاقتصادية في الاسلام

إن محيط التعليمات الاسلامية التي ذكرتها فيما سبق هو نفس محيط التعليمات الاقتصادية في الاسلام . إن النظام الاقتصادي الاسلامى لا ينجح بدونه إذ كان لهذا المحيط صلة قوية بالنظام الاقتصادى الاسلامى، فلذا كان على أن أبينه أولا و أشرح المحيط الذي قدم فيه الاسلام للعالم نظاما اقتصاديا رائعا و صالحا أيضا . على كل كل حال إن الاسلام كما سبق أن ذكرت لا يعترف بنظام غير دستورى .

غير أنــه يقدم طريقا وسطا بين النظامين الأخـيرين ، لكن المبادئ الاساسية للاقتصاد الاسلامى ترجع الى الحقائق التي سبق أن بينتها .

النظرية الاقتصادية الاسلامية عن الاموال

إن النظرية الاقتصادية الاسلامية عن الاموال ما يلي ، يقول الله تعالى : هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا، اي أن جميع الموجودات في الدنيا قد خلقت لجميع البشرية ، إن الجبال و الانهار و المعادن التي ترونها و ألوف الوسائل لتقدم الانسان التي تبدو لنا إن نظرية الاسلام في هذه و تلك جميعا أنها عامة لبنى الانسان و كلهم كمجموع إنسانى يملكونها . المعادن مفيدة لهم أيما فائدة و الانهار أيضا تنـفعهم نفعا عظيما و الجبال كـذلك تعود عليهم بمنافع جمة كتوليد الكهرباء و استخراج الذهب و الفلزات الثمينة الاخرى، و كأدوية يتداوى بها الانسان او يتجر بها أيضا او كألوف الاشياء من هـذا النوع التي نستعملها في الصناعات المختلفة ، و لقــد قل الله تعـالى عن كلها جميعا ''خلق لـكم ،، أن يا بنى الانسان إن هـذه الاشياء كلها خلـقت لاجلكم جميعا و إنكم كلكم مشتركون في كل شيء من حيث الانسانية .

المبدأ الاسلامى المقرر عن الاموال

ثم يشرح الله عز و جل قـانـونا هاما عن الأمـوال قائلا : آتوهم من مال الله الـذي آتاكم (النـور) ، اي يا أيهـا النـاس إذا ملكتم العبيد من أسارى الحرب مخـذولين ، لا حكومتهم تهتم بتحريرهم ، و لا ذووهم يسعون لفك رقابهم ، و لا هم أنـفسهم يملكون من المال ما يفتدون بـه فانتا، و الحالة هـذه ، نأمركم — يا أيها المتولون لهؤلاء الأسـارى الحربيـين — بأن تساعدوهم بما

أعطاكم الله، اي أعطوهم من عندكم مالا يستثمرونه فيفدون بـه أنفسهم و يتحررون ، كأنه إذا لم يملكوا ما يتحررون به ، فعليكم أن تقدموا اليهم المال و الناس كلهم فيه سواسية الحق، فلذلك إن فقد العبد وسائل الحرية ، فأعطوه من مال الله . كذلك أمر الله الحكام و الملوك المسلمين قائلا يا أيها الحكام و الملوك المسلمون ، إنكم لا تملكون مال الله وحدكم ، بل إن مال الله ملك لجميع نوع الانسان ، فلـذلك إن ملكتم أسارى الحرب فخذلهم قومهم و لم يسعـوا لفدائهم ، أو إذا كان أحـد الأسارى ثريا مثلا و أقاربه لا يريدون فكاكه لكى يستولوا على ثروته ، فيأمركم و الحالة هذه بأن لا تخونوهم و لو خانهم أقاربهم ، بل عليكم أن تختصوا قسما من مالكم لأجل تحريرهم . إن ما عندكم من المال إنما هو لله وحده و لستم بمالكيه، فكما أنتم من عباد الله كذلك العبد المملوك أيضا من عباد الله، و يتبين مما سبق من الآيات أولا : أن ثروات هذا العالم ملك لجميع الناس بلا تفريق او تفضيل ، ثانيا : إن المالك الحقيقى للاموال و الثروات هو الله وحده عز و علا ، فلـذلك إن الانسان ليس لـه الخيار المطلق في صرف أمواله ، بل عليه أن يحدد حريته حسب أوامر مالكه الحقيقى .

إن هذا الأصل لملكية الأموال هو الذي ظل الأنبياء حسب القرآن يتمسكون ببيانه ، كما ورد في القرآن عن شعيب عليه السلام حينما قال لقومه : لا تغصبوا حقوق الناس ، و لا يجعل بعضكم بعضا هدفا للظلم و الاضطهاد ، و لا تختاروا لكسب الأموال و إنمائـه طرقا تدفع الى الفساد ، فرد الناس على قوله :

أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد . (الهود)

اي أن المـال لنـا نحـن و إن ضيـاعنـا و عقـاراتنـا لنـا

نمتلكها نحن ، و لنا أن نعطي منها من نشاء و نمنعها عمن نشاء ، و لنا نحن أيضا أن ننفقها حيث نشاء و نضن بها حيث نشاء ، ما لك و لأموالنا ، إنها ليست لك حتى تكون مسئولا عن توزيعها او إنفاقها ، إنما الأموال لنا نحن و لنا أن نتصرف فيها كما نشاء ، هل صلاتك قد عبثت برأسك حتى أخذت تتدخل في ممتلكاتنا و أموالنا و تأمرنا بأن إنفاقها حسب رغبتك سيعود علينا بثواب ، وأن تصرفنا فيها سيجر علينا العذاب ، من أين لك السلطان علينا حتى تنبهنا و توعدنا ؟ ثم تعرضوا به قائلين : إنك لأنت الحليم الرشيد . يا لك من مواس للفقراء يبدو أنك حليم و نبيل و رشيد نعترف بأنك كذلك ، لكن ماذا دهاك إذ ترهبنا و توعدنا مع حلمك و رشدك ! إننا لسنا بمؤمنين لك .

النظرية الوحيدة عن الاموال منذ بدء الخليقة

و نتبين مما سبق أن نظرية القرآن في الأموال هي التى ظل الأنبياء السابقون يقدمونها ، و أنهم لم يعتبروا الانسان حرا مطلقا في اكتساب الأموال و تصريفها ، بل إنهم كانوا يوقنون بأن الأموال كلها لله و لا يجوز إنفاقها خلاف مشيئة الله عز و جل .

أهمية النهوض بالفقراء لاجل النهضة القومية

بعد هذه المبادئ المقررة أريد أن أصرح بأن الاسلام كان قد أعلن في مستهل نشوئه أنه قام للنهوض بالفقراء و مساعدتهم كما يتبين ذلك من مطالعة أوائل السور نزولا ، و هي معظمها يحتوى على رفع مستوى الفقراء و تشجيعهم و إعانتهم و التقدم بهم في سباق الرقى . و لقد رغب الله المؤمنين في هذه السور الى أنهم إذا أرادوا النهضة القومية الشاملة و مرضاة الله الواسعة فعليهم أن يكونوا أعوانا للفقراء و يبذلوا جهدهم لحل مشاكلهم . هذا الأمر

كان نزل في تلك الأيام التي لم تنزل فيها الاحكام الأخرى بعد، إن أحكام الصلاة لم تكن معينة في القرآن بعد، وكان القرآن لما يتناول مبادئ التجارة بالبيان، ولما يقدم للناس أحكام القضاء، وكانت أحكام المعاملات ما زالت منتظرة النزول، وكان القرآن لم يأت بعد على تفصيل الحقوق الزوجية، وحقوق الراعي والرعية، وحقوق السادة وأتباعهم من الموظفين وغيرهم، أجل في تلك الأيام البدائية، اهتم القرآن بالنهوض بالفقراء ومكانفتهم ووجه عناية الناس الى ذلك، بل أوعد الناس بالدمار والتبار إذا لم يعملوا على نهضة الفقراء ومؤازرتهم، ونبههم بأن القوم الذين يصرفون أنظارهم عن حقوق الفقراء يصبحون عرضة لغضب الله جل وعلا.

التحريض على النهوض بالفقراء فى أوائل التعاليم الاسلامية

يتبين من التاريخ أن أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم يستهل با ''إقرأ باسم ربك الذي خلق،،. وليس المراد بذلك أن هذه السورة كلها نزلت في يوم واحد، بل أريد بذلك أن أوائل هذه السورة استهل بها نزول القرآن، ثم نزل سائرها شيئا فشيئاً، إن من أقرب ما نزل من السور بعد هذه السورة أربع سور عدها السيد وليام ميور (الحاكم العام الأسبق لاحدى مقاطعات الهند وله مكانته المرموقة بين كتاب أوربا البارزين) من حديث النفس (Soliloquy). ولقد زعم ميور أن هذه السور. بنات الأفكار التي كانت تنتاب محمدا صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، وهي البلد والشمس والليل والضحى. إن نزول هذه السور عند المفسرين بعد سورة العلق، ولا غبار على هذا الرأي من الناحية التاريخية أيضا، غير أن ميور هذا يرى أن هذه السور

نزلت قبل سورة العلق ، و يستدل على رأيه بأن الله عز و جل لما قال للرسول " اقرأ "، كان لا بد من وجود للمقروء قبل هذا الأمر . و قصارى القول إن التاريخ الاسلامى أيضا يعد هذه السور من أول أوائل القرآن ، أما ميور فقد غالى في أوليتها حتى جعل نزولها قبل النبوة أيضا .

إننا إذا أمعنا النظر في هذه السور الاربع ، وجدنا أن ثلاثة منها تتضمن أهمية العناية بتفقد أحوال الفقراء لأجل النجاة الروحانية و النهضة الشعبية و تحرض على القيام بخدمتهم ، كما وجه فيها أنظار الأغنياء الى إصلاح أنفسهم ، كما يقول عز و جل في سورة البلد :

> يقول أهلكت مالا لبدا ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين و لسانا و شفتين و هديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة، و ما أدراك ما العقبة، فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا و تواصوا بالصبر و تواصوا بالمرحمة .

أي كل غنى في العالم يقول إننى أهلكت مالا لبدا و إننى من كبار الأغنياء ، و أنفقت أموالا باهظة ، و قد بذلت الألوف بل مئات الألوف و مئات الملايين ، (و اللبد : الأموال المتراكمة) . و ما برحت أجود بكنز تلو كنز ، و لم أقم للمال وزنا ، فمن أحق منى بالعظمة و الاحترام عند الناس ؟ بعد ذلك يرد الله عز و جل عليه قائلا : أيحسب أن لم يره أحد — أي أ يظن هذا الطائش أن ليس في العالم أحد يراه؟ إنه يقيم المآدب و يذبح في يوم واحد مئات الجمال ، و يحسب أن له منا عظيما على العالم ، فيقول تعالى ، أيعمى كل العالم عن أن يتبين أن هذه المئات إنما

ذبحت لأجل التكرم و التشهير الشخصى ، إن قلب صاحبها لعاطل عن مؤاساة الفقراء و سودتهم . و لو حز في صدره مصائب الفقراء ، وكان قلبه عامرا بحماس لاراحتهم من الفقر و الضيق ، لذبح مائة جمل في مائة يوم ، كل يوم جملا بدلا من أن يذبح المائة في يوم واحد ، و ذلك لكى ينجو الفقراء من فقرهم مدة أطول ، و لكنه لم يكن يفكر في كل ذلك ، و إنما كان يريد أن يضج المجتمع بسمعته و يعده من كبار الأثرياء فينبؤه الله قائلا : ,, أ يحسب أن لم يره أحد ،، اي أ يظن أنه فوق الرقابة و لا يراه أحد ؟ كلا إنه لخاطئ الظن ، إن العالم ليس من العمي و الحمق بهذه الدرجة ، و إن الناس ليعرفون حقا أن ما أنفق إنما أنفقه لأجل شخصيته ، و ليس لأجل مصالح عامة الناس .

,, ألم نجعل له عينين ،، ـ اى ألم نكشف عن وجهه حجب الظلمة بعينين ، أ لم يكن ينظر الأوضاع المضطربة في وطنه ، كيف كان أهله يذوقون مرارة الجوع ، و لم يكن لهم من مغيث أو مواس ؟ لكن هذا الانسان المتغطرس يذبح لأجل صيته مائة أو مأتين من الجمال في يوم واحد ، ويحسب أنه أتي بأعظم الأعمال . أ فلم يكن ذا عينين مبصرتين ليرى أحوال بلاده ؟

,,و لسانا و شفتين،، ـ و إن كان في غمة من رؤية الأحوال ، أفليس ذا لسان منطلق ؟ أ و لم يكن بامكانه أن يسترشد الناس نحو المصارف الصحيحة لماله ؟

,,و هديناه النجدين ،، ـ أ و لم نزوده بقوي التقدم و الازدهار في المجالين الدينى و الدنيوى ؟ أ و لم نفطره على البحث عن خالقه و التوسل الى قربه ؟ ألم نطبعه على مجاملة بنى الانسان ؟ و إن أهمل هذه الطرق الثلاث ، و بذر أمواله بغير ما هدف او غاية ، فانما بددها و لم يبذلها .

ثم يقول عز و جل : ”فلا اقتحم العقبة،، ـــ فما استطاع أن يعلم العقبة ، و تعذر عليه الصعود كرجل سمين يتخاذل في الطريق تعبا ، استهلك أسوالـه لأجل سمعتـه الشخصيـة ، مع أن الله وهبه عينين كان يستطيع أن يبصر بهما أحوال الفقراء . و أعطاه لسانا و شفتين ، و بها كان يقدر على أن يسأل الناس قائلا : لا أدرى المصرف الصحيح للمال فألجأ اليكم ، أخبرونى بمواضع الانفاق ، و هذا رغم أننا أودعنا فطرته حب الخيرات و مجاملة الناس و طبعناه على حب خالقه .

و هنا أمثلة أخرى لتبذير الأموال ، كبعض الأغنياء المترفين الذين يبددون الألوف لارضاء الموسسات الخليعـات ، و بعضهم إذا أعجزتهم غـــزارة المال يعقـدون حفلات الغنـاء و يفرطون في الاسراف ، و بجوارهم أرملـة بائسـة ساهرة تضم صغارها الجائعين الى صدرها طوال الليـل و صغارها يتضورون جوعـا و يئنون، لكن هؤلاء الأشقياء لايحفلون باطعام الايتام ، و يستهلكون ألوفا مؤلفة لأجل هذه الحفلات، و كل ذلك ليس إلا لأن يصفه الناس بالثراء . فيقول الله عن مثل هؤلاء المتنعمين إن هـذا التبـذير ليس بـــذلا للمال ، إنما هو تدمير له و تبديد .

ثم يقول الله عز و جل : ”و ما أدراك ما العقبة،،ـــ هل تدرون ما هي العقبه ؟ و لعلكم لا تستطيعون أن تدركوا حقيقتها ، ها نحن نخبركم بما نريد بها . هي فك رقبة ، و نعنى بها أنـه ألم يفكر ذلك الانسان الغـوى في هؤلاء العبيـد المقـهورين بيـد الانسان، المحرومين من الآباء المعزولين عن أمهاتهم المقطوعين عن أشقائهم و شقيقاتهم ؟ ألم يخطر بباله أن يسعى لتحريرهم و يفك عنهم أغلال العبودية حتى يتنفسوا في جو الحرية الواسع ؟

”أو إطعام في يوم ذي مسغبة،، ـــ و هلا قام على إطعام الفقراء

و المساكين بدلا من أن يذبح مائة أو مائتي جمل كل يوم و يعقد بها مأدبة عظيمة يدعو اليها أمثاله من الأغنياء؟

"في يوم ذي مسغبة"ـــ أي في أيام المجاعة و الجفاف التي يقاسي فيها الفقراء ازمة شديدة في أقواتهم، حتي أن دهماءهم يضطرون للتجوع و الاملاق، أو في أيام الشتاء القاسية التي يسودها الجفاف و تتضاءل فيها المؤونة، وكان عليه في مثل هذه الظروف أن يتفقد أحوال الفقراء و يطعم الجائعين و يكسو العراة، وكذلك يبذل أمواله في محلها و بطريق مشروع. لكنه لم يفعل ذلك، بل أطعم سادته وكبراءه مئات الجمال في يوم واحد، وكل ذلك لكى يعرف بالغني و الثراء.

"يتيما ذا مقربة"ـــ و هلا أطعم الأيتام بدلا من أن يبدد أمواله في المآدب الفخمة و يبيد ثروته في القمار و الملاهي، و لوكان قلبه عامرا بالتألم لآلام الفقراء و كانت مشاعره فياضة بالعطف على اليتامى، لكان عليه أن يقف ماله على إطعام ذوى القربى منهم، و لا يعنى ذلك أن يخص ذويه دون غيرهم بالانفاق، لأنه رب بخيل شحيح يهب أيضا للانفاق على أقاربه، بل المراد بذلك أن اليتامى على فئتين فئة محرومة من صلات الأقارب كل الحرمان، و مثل هؤلاء التيامى قد يرق لهم أقسي الناس قلبا، فيقبل على إطعامهم، لكن هنا فئة أخرى من اليتامي، لهم إخوة و أخوات او أعمام و أخوال او غيرهم من الأقارب، و قلما يلتفت الناس اليهم، لذلك يقول الله عز و جل أنه إن كان هناك يتيم من هذه الفئة الأخيرة لـــه أقارب و ذوون، فرغم ذلك كله على كل إنسان أن لا يضن عليه بمشاعر العطف، بل يراه يتيمه الشخصي دون أن يعزوه الى أقاربه، و أن يكون قلبه مفعما بحبه الشديد الذي يجعله مسئولا عنه دون غيره من أقارب اليتيم، و أنه هو راعيه دون ذويه.

"أو مسكينا ذا متربة"— أي أنه لماذا لم يطعم المسكين الذي كان ذا متربة؟ اي أنه لم يكن يستطيع أن يعارض أو يحتج او يقوم فيطرق باب أحد، بل كان ضجيع التراب. و من المساكين من يسعى نحو ابواب الناس و يقص عليهم فقره و مسكنته و يستدر منهم المساعدة، و منهم من لا يدخر وسعا في الصياح و الصراخ بأبواب الناس، و لا يبرحون عنها الى الأخرى حتى ينالوا نصيبهم، و منهم من يلتزمون الأبواب مهما ردهم أصحابها و لا ينصرفون عنها إلا بعد الاستيلاء على شيء، و مثل هؤلاء المتسولين يدعون "حميرا". ثم هناك من المساكين من يحتجون على حرمانهم و يستلفتون أنظار الحكومة بوفود جماعية و يلحون عليها بتقديم المساعدات، و هذه الطائفة الأخيرة لا يحرمها الناس عادة. لكن الله تعالى يقول إننا نتوقع منكم من مواساة المساكين و ودهم ما يجعلكم تتفقدون حتى أحوال ذلك المسكين المترب الطريد الشريد البائس المتقاعس المخذول في الغابات الذى لا يقدر على الاحتجاج و لا يملك البلوغ إلى أبواب الأغنياء، و ليس عضوا لنقابة للعمال، و لا يتصل باحدى الجمعيات التى تنادى بمطالبة حقوقها، و إنه المريض الهزيل المهمل المعزول في زوايا الخمول، ليس له فى هذه الدنيا من أمل و لا عمل يعتمد عليه فى معيشته، هو العاجز المتداعى المهجور المحروم المدفوع الى تعاسة و يأس، تعوزه القوة على المشي و التنقل الى أحد، كان عليكم بذلك الفقير المترب الملطخ بالذلة.

"ثم كان من الذين آمنوا"— ثم كان على ذلك المحسن أن يتقدم فى مواساته و تودده و تسامحه حتى نتوقع منه بعد القيام بكل هذه الأعمال أن لا يقول أننى أطعمت فلانا و قمت برعاية فلان، بل عليه أن يتضرع الى الله متواضعا: اللهم إننى اجتهدت ما وسعني لتطبيق أوامرك، لكني مع ذلك لست متأكدا من القيام بها حق القيام. فكأنه كان من

واجباتكم أن تكونوا مؤمنين بأن ما عملنا إنما هو خضوع لامر وليس منا ولا إحسانا، ولا ندرى أأدينا واجبنا حق الأداء أم لا.

''وتواصوا بالصبر'' — ثم كان عليكم أن تخطوا خطوة أخرى وامضوا قدما، وتجعلوا أنفسكم مسؤولين عن المشاكل العامة في بلادكم، غير قانعين بالانقلاع عن التنعم والترف الشخصى، بينما الفقراء يذوقون مرارة الآلام (كما نرى في أيام التسعيرة هذه أن الأغنياء يفوزون بحاجاتهم، بينما الفقراء لاينالون إلا الحرمان). ثم لم يكن من واجبكم مجرد المساعدة الشخصية للفقراء، بل إننا نستزيدكم ونتوقع منكم أن تبذلوا جهدكم لتوجيه أصحابكم وعشائركم الى هذه الطريق، ويسعى كل المواطنين مجتمعين متكاتفين لمصالح بلدهم.

ثم يقول الله عز وجل مستزيدا: ''وتواصوا بالمرحمة'' اى كان عليكم أن لا تقيموا لما عملتم من الحسنات أى وزن، بل من الأوجب أن تتواصوا رغم ما قد عملتم بالترحم المزيد على ذلك ما دمتم تنبضون بالحياة.

هذه بواكير التعاليم الاسلامية وأوائلها نزولا في القرآن. نزلت حينما لم تخرج الأحكام عن حيز الاجمال الى التفصيل والشرح، وكان أهل مكة حديثى العهد بالاسلام.

إن وليام ميور يري أن هذه هي الأفكار البدائية التي تبتدئ ''باقرء''، أي خذها الى الناس واقرأها عليهم. على كل حال إن هذه التعاليم البدائية للاسلام لتبين بجلاء ووضوح أن الاسلام كان قد صرح في بادئ ذي بدء أنه حينما يعترف بالحرية الشخصية ويقر بالكفاح لأجلها، فهو كذلك لا يجيز أن يتقلب بعض الناس في أعطاف النعيم والترف، بينما يعيش بعضهم الآخرون معيشة ضنكا.

حظر التفريق في الاسلام

العبودية

و مما ينبغي معرفته بأن أهم الدواعى الى المعاملة غير العادلة و غير الطبعية التي حرمها الاسلام تحريما باتا ، هو العبودية و لا يمكن لعامـــة الناس أن يدركوا حقيقـة علاقـــة الاقتصاد العالمى بالعبودية ، لكن الواقع أن العبودية ترتبط بالاقتصاد رابطة أساسية عميقة ، و لذلك السبب نفسه قد منع الاسلام الاستعباد منعا حاسما . إن عادة الاستعباد ظلت مستمرة قبل الاسلام و بعده في معظم بلاد العالم ، كما أنكم إذا تصفحتم تاريخ الشعوب الرومية و اليونانية و المصرية ، وجدتم أن أساس رقي تلك الشعوب و نهضتها على الاستعباد . و كان للاستيلاء على مثل هؤلاء العبيد طريقان، أحدهما أن بعض الشعوب المتحاربة كانت تلقى القبض على أفراد البعض حينما صادفتهم في ميدان القتال و تستعبدهم، كما كانت الروم تستولى على الفرس ، و الفرس إذا سنحت لهم فرصة كانوا يقبضون على الرومان، و كلاهما كان يحسب ذلك أداة للنيل من قوة العدو .

و الطريق الثاني للاستعباد أن الناس كانوا يغيرون على القبائل المتوحشـة و يستولون على نسائهم و أولادهم عنوة و يتخذونهم عبيدا . و الطريق الاوّل كان معمولا بـه حسب سنوح الفرصـة ، و الطريق الثاني كانوا يتمسكون به كعادة ، و ظلوا كذلك حتي نهاية القرن الثامن عشر ، كما نرى أنه سيق مئات الالوف من سكان افريقا الغربية الى الولايات المتحدة الامريكية و هم الى الآن هناك و إنهم ، و إن تحرروا اليوم ، غير أننا نجد هناك الآن أيضا عشرين أو ثلاثين مليونا منهم الذين شحنوا من أفريقا الغربية ، و الشعوب الاوروبية كانت تهدف بهذا العمل الى استثمار ثروة بلادهم ، إن هؤلاء العبيد كانوا يسخرون في أعمال متنوعة ، أحيانا كانوا يستخدمون

في المصانع ، او كانوا يستعملون في السفن و البواخر ، و كذلك كانوا يرغمون على جميع الأشغال الشاقة التي كان لا بد من القيام بها لأجل النهضـــة الشعبية ، كما أنهم إذا أرادوا بذلك تخفيض نفقات الصناعة و الزراعة و جر الأرباح الطائلة ، استخدموا هؤلاء العبيد في سقي المزارع و زراعتها و حراستها أيضا .

نهى الاسلام عن اتخاذ العبيد الا من أسارى الحرب

و جملة القول أن هذا الاستعباد كان يحرم طائفة من الانسانية من المساواة من ناحيـة ، و كان يعد و سيلة لاستثمار الثروة الشعبية من ناحية أخرى. القرآن الكريم ينهي عن كلا الطريقين نهيا باتا ، كما يقول الله عز و جل :

> ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا و الله يريـد الآخرة، و الله عزيز حكيم .

أي أننا لم نأذن لنبي من قبل و لا نأذن لكم باتخاذ العبيد إلا من قوم تحاربونهم حربا علنية . فاذا كانت هناك حرب دينيـة غير سياسيـة ، فلكم أن تتخذوا الأسارى في ميدان الحرب فـقط . و لا يحق لكم أن تستأسروا الأعداء بغير حرب دينية أو تستولوا عليهم بعد الحرب او خارج ساحاتها ، إنما يجوز لكم الأسر في ساحة الحرب إذا حاربتم حربا علنية ، فكأنه لا يجوز أسر اولئك الذين لم يحاربوكم علنـا . إنما الأسارى من الجنود المحاربــة او الــذين يساعدونهم عليها ، لأنهم إذا لم يؤسروا ، أمكنهم فيها بعد قتال المسلمين مع جيش آخر .

ثم يقـول الله عز و جل : ”تريــدون عرض الــدنيـا“

اي يا أيها المسلمون ، أتريدون كسائر الناس أن تزدادوا قوة و بأسا بالقبض على بعض أعدائكم بغير حرب ؟ ”و الله يريد الآخرة ،، اي أن الله عز و جل لا يريد أن تتصمدوا للدنيا ، بل هو يحب أن يوجهكم و يهديكم الى طرق تؤديكم الى الخير في هذه الدنيا و تورثكم مرضاة الله في الآخرة . إن العمل بما أمر الله به من الانتهاء عن اتخاذ العبيد من غير المحاربين ، لهو خير لكم لأجل مرضاة الله عز و جل و حسن العاقبة ، فلا يجوز اتخاذ العبيد لدى الاسلام إلا من أسارى الحرب . كان المسلمون في أوائل الاسلام يتمسكون بهذا الأمر تمسكا شديدا حتى حدث أن لجأ وفد من أهل اليمن الى عمر رضي الله عنه في خلافته ، فشكوا اليه بأن النصارى كانوا قد استعبدوهم قبل الاسلام عنوة بغير حرب ، و إلا فانهم كانوا أحرارا ، فتفضلوا علينا بالتحرير من هذه العبودية المفروضة علينا . فقال لهم عمر رضي الله عنه ، هذا الحادث و إن حدث قبل الاسلام ، لكننى رغم ذلك سأرى في هذه القضية فان صدقتم فآمر بتحريركم حالا . لكن أوربا على عكس ذلك ، ظلت متمسكة بالاستعباد الاجبارى الى أوائل القرن التاسع عشر لأجل توسيع نطاق تجارته و زراعته ، و لا شك أننا نرى في بعض أدوار التاريخ الاسلامى عادة غير إسلامية من اتخاذ العبيد، غير أننا لانجد فيه ، مهما حاولنا ، استغلال العبيد لأجل الأعمال التجارية أو الزراعية .

اطلاق أسارى الحرب فى الاسلام

أما أسارى الحرب، فالاسلام يأمر عنهم قائلا : ”إما منا بعد و إما فداء،، أى إذا من الله عليكم بأسارى الحرب و اضطررتم للتفكير في مصيرهم، فعليكم أولا أن تمنوا عليهم بالتحرير بغير فدية، فان لم تستطيعوا ذلك فأطلقوهم بالفدية، وليس لكم خيرة في طريق ثالث

سواها، فعليكم أن تختاروا أحدهما، إما أن تمنوا و تجعلوا منكم عليهم بالتحرير قربة عند الله و مرضاة، و إن لم يمكن لكم المن من أجل الأزمات الاقتصادية، فلكم أن تحررو هم بالفدية التي تستلمها الحكومات كحق لها . لكنه قد يمكن أن يكون الأسير غير قادر على دفع الفدية، و لم تحاول الحكومة أو أقاربه لتحريره، أو يكون راعيه و سيده فقيرا لا يستطيع تحريره بغير فدية، فعندئذ قد اقترح الاسلام حلا لهذه المشكلة و هو تقسيط الفدية لأجل التحرر، كما يقول الله عز و جل :

> و الذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا، و آتوهم من مال الله الذى آتاكم .
> (النور)

اى إذا كان هناك أسير لا تستطيعون أن تمنوا عليه بالتحرير و لا يستطيع أقاربه افتداءه فله عندئذ إن أراد التحرر أن يقول لسيده إنه يريد أن يشتغل و يكتسب و يدفع أقساط الفدية، فعليك أن تحررني ، فمجرد إقراره بالمكاتبة او تقسيط الفدية يجعله حرا حسب التعاليم الاسلامية . ثم يضيف الله عز و جل الى ذلك و يقول إننا نعظكم بأمر آخر، و هو أن الله إذا تفضل عليكم بالمال و الثروة، فبما أن أموالكم هذه هي في الواقع أموال الله ، و العبد أيضا عبد من عباد الله ، فلذلك عليكم أن تقدموا الى العبد نصيبا من أموالكم ليكون له رأس مال لعمله المقبل، و بذا يتمكن من دفع الاقساط في سهولة و يسر .

فالآن ، أيها السادة ، هل تبقى فى الاسلام من صورة تساعد على مزاولة العبودية ؟ فمع هذه الأحكام الشاملة و مع التسهيلات غير العادية إذا رضى شخص بالعبودية و آثر البقاء عند مسلم ، فليس لنا إلا أن نقول إنه قد تبرأ من قسوة أهله، و أنه متأكد من أنه إذا تحرر و رجع اليهم تعرض لأشد الظلم، فلذلك هو يختار تلك

الحياة. ثم لنرجع النظر كرتين، فلا نرى و لا صورة واحدة تؤدى الى العبودية.

أولا أمر الاسلام بالمن بغير الفدية، ثم قال، إن لم تستطيعوا فحرروهم بالفدية، فان كان هناك رجل لا يستطيع دفع الفدية بنفسه و لا تساعده الحكومة، و لا يتقدم أحد من أقاربه لفك رقبته، فله أن يطالبكم بالمكاتبة او التقسيط. أما ما يكتسب من المال فهو يملكه كل الملك سوى القسط الذى يدفعه الى صاحبه، و إنه عندئذ حر تمام الحرية.

و الذى قتل عمر أيضا كان عبدا مكاتبا. ذلك العبد طالب صاحبه المسلم بالمكاتبة و قال له إنه يستطيع دفع الفدية كلها بالأقساط الشهرية، فجعل عليه قسطا يسيرا، و ما زال يدفعه حتى شكا مرة الى عمر رضي الله عنه بأن سيده جعل عليه قسطا فادحا، و سأله أن يخففه عنه. فتحقق عمر رضي الله عنه عن موارده، فعرف أن قسطه أقل بالنسبة الى موارده بأضعاف كثيرة، فقال له عمر إن قسطك أقل ما يمكن إزاء مواردك، فلا يمكن تخفيفه، فغضب على هذا الحكم غضبا شديدا، و ظن أن عمر حكم عليه بذلك لأنه فارسي و حكم لسيده لأنه عربي، فجن جنونه من الغضب فاغتال حضرته في اليوم التالى بالخنجر حتى استشهد.

فالاسلام أقر للعبيد حق المكاتبة أو تقسيط الفدية إذا أرادوا ذلك، فاذا لم يقدر أحدهم على الاكتساب لأجل فقره، فعلى المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى: آتوهم من مال الله الذى آتاكم، اى على السيد أو على الحكومة أن تساعده على المكاتبة للتحرر.

حسن المعاملة مع أسارى الحرب

أما عن خدمة العبد فأمر الاسلام أن لا يكلف أكثر من طاقته ، فاذا كلف بما لا يستطيع ، فعلى السيد أن يساعده على أداء ذلك العمل ، فليس له أن يسبه ، فاذا استأجره أحد منكم ، فعليه أن يدفع أجره قبل أن يجف عرقه . فاذا كان الأجير حرا فضربه صاحب العمل، فللأجير أن يرفع الأمر الى القضاء و يطالب بالقصاص ليلقى المعتدى جزاء اعتدائه ، و ليس لصاحب العمل أن يعتذر و يقول إنه خادمى فلذا أستحق أن أضربه ، الاسلام لا يعترف له بمثل هذا الحق ، بل هو يأذن للخادم إذا ضرب ، أن يرفع القضية على صاحبه ليلقى عقاب اعتدائه . فان كان الأجير عبدا فضربه سيده ، فعلى الحكومة الاسلامية أن تقضى بحريته ، و تنبه صاحبه بأنك لا تستأهل أن تكون راعيا لأسير . ثم أوصى الاسلام باطعام العبد مما يأكل سيده نفسه ، كان العبيد في عهد الاسلام يرفضون الرجوع الى أهلهم، لأنهم كانوا على علم بأنهم إن رجعوا ما وجدوا إلا أردأ الطعام ، لكنهم عند سادتهم المسلمين يتمتعون بأشهى الأطعمة ، و أيضا إن سادتهم يبدؤن باطعامهم قبل أن يأكلوا بأنفسهم ، فأين نحن في بيوتنا من مثل هذا التنعم ، فالمسلمون لما صاروا ملوكا و حكاما ، كانوا يريدون أن يخرجوا العبيد من بيوتهم ، لكن العبيد كانوا يؤثرون البقاء عندهم و يرفضون الخروج . المسلمون كانوا يقولون لهم تحرروا بالفدية ، لكن العبيد كانوا يرفضون ذلك ، فكان المسلمون يعرضون عليهم التحرر بالمكاتبة و التقسيط، لكن العبيد كانوا يكرهون ذلك أيضا لأنهم كانوا يعرفون حق المعرفة أنهم إذا فارقوا سادتهم بالتحرر ، ما تيسرت لهم هذه الحياة الهنيئة . و في هذه الظروف إن تمسك بعض العبيد بسادتهم، فلا ينبغي أن يكون مثل هذه العبودية محل اعتراض .

العبودية و نظام الاقتصاد

هذه المحاضرة لاتتصل بالعبودية وحدها ، غير أن العبودية و النظم الاقتصادية لمختلف البلاد ظلا في تاريخ العالم المديد مرتبطين ، إن منطقة سيبيريا في روسيا كان عمرانها مقصورا على العبيد و السجناء السياسيين ، كذلك عمران أمريكا أيضا كان متوقفا على جهود العبيد و السجناء السياسيين أيضا ، ما كان من الممكن لأهل أمريكا أن يعمروها بأنفسهم، هم استوردوا مئات الألوف من العبيد من أفريقا الغربية ، فعمروا لهم هذه المناطق القاحلة . إن ولايات المتحدة الأمريكية اليوم لتفتخر و تزدهي بثرواتها الطائلة ، و تطاول بتجارتها و صناعاتها الواسعة ، لكن هذه الثروات كلها رهينة جهود اولئك العبيد السود الذين ساقوهم من أفريقا الغربية ، كذلك إن تاريخ يونان و الروم ليدل دلالة واضحة على أن عمرانها مرجعه الوحيد هم العبيد المسخرون ، و أيضا إن تاريخ فرنسا و أسبانيا ليشهد على أن نهضتها منوطة بتلك الأعمال الجبارة التى قام بها العبيد في بلادها قبل قرنين أو ثلاثة ، و هم الذين نهضوا بحالتها الاقتصادية أيما نهوض . فبما أن القضايا الاقتصادية و العبودية متلازمتان، لذلك قد أوضحت النظام الاقتصادى الاسلامى الشامل الذي استأصل جذور العبودية في بداية عهده ، و صرح علنا أن التقدم الذي يتأسس على اضطهاد العبيد لايمت الى التقدم النزيه الشريف بصلة .

النظام الاقتصادى العام

و الآن إنى أتناول النظام الاقتصادى العام ، لكن قبل أن أشرحه، أرى من الأحرى أن أذكر أن الأديان التي تعتقد بالبعث بعد الموت، هي تتمسك بابقاء الحرية الفردية في النظام الاقتصادى .

و في الواقع إن شعوب العالم تنقسم الى قسمين : دينية و اللادينية، و الطائفة الثانية يمكنها أن تضطلع بأى نظام إذا استساغه العقل ، لكن الطائفة الاولى التي تؤمن بدين لا بد من إصرارها على نظام لا يخل بحياتهم الأخروية ، و من وجهة النظر هذه إن الأديان التي تؤمن بالبعث بعد الموت ، لا بد من أن تتمسك بالحرية الفردية في كل نظام اقتصادى ، لأن الذين يؤمنون بأنهم سيبعثون بعد الموت ، إنهم يوقنون أيضا بأن الذي يعمل صالحا سيدخل الجنة و يتقرب الى خالقه عز و جل ، و تشمله مرضاة الله و تقديره و تحويه قدوسيته و سبوحيته و هو من المقربين ، و سيتحلى بكل نوع من علوم سماوية عليا و تزول عنه علات الدنيا كلها حتى يبرع في معرفة الله . و لقائل أن يقول و قوله ليس بضائرنا إن هذه العقيدة باطلة و هي ملء الوهم و الكذب ليست إلا ، لكن الذي يؤمن بأنه لا بد من أن يلقى حياة أخرى بعد الموت ، سيقوم في هذه الدنيا بأعمال تنفعه في الحياة الآخرة ، و لن يؤثر متاع هذه الدنيا على خيرات الآخرة ، لأن متاع هذه الدنيا يبقى ستين أو مائة سنة ، لكن الحياة الآخرة مخلدة مئات ألوف الملايين من السنوات ، و عند البعض هي أبدية غير منقطعة ، فان كانت حياتنا الدنيوية و الأخروية متصلتين، و الاولى مرحلة و ليست نهاية، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت ، سيؤثر خيرات الحياة الأخروية الأبدية على مصالح هذه الدنيا الزائلة إذا حالت دون رقيه الأخروى الأبدى الطويل .

ثم نرى أن الأديان التي تعتقد بالحياة الأخروية هي أيضا تؤمن بأن الأعمال الصالحة المتطوعة هي أساس الحياة الأخروية حسنة كانت تلك الحياة او سيئة ، فلذلك إن المؤمنين بالآخرة يحسبون هذه الدنيا مزرعة الآخرة ، فكما أن للبذر موعدا محددا

كذلك للحصد وقتا آخر معينا ، و الفلاح الحازم هو الذي يزرع ما يجب أن يحصده ، فكذلك الشخص الذي يحسب حياة هذه الدنيا امتدادا للحياة الآخرة و يعدها مزرعة للأخرى و يستيقن بأن أعمال هــذه الحياة ستنفعه في الآخرة ، هو سيزرع فيها ما يتأكد من نفعه في الآخرة . و الآن مهما رسيتم مثل هؤلاء المؤمنين بالجنون و الختل و الجهل ، مما لا شك فيه أن الذي يعتقد ببعث آخر بعد الموت هو سيجعل حياة هــذه الدنيا تابعة للاخرة ، و لأن حياة الآخرة تتوقف على الاعمال الطوعية في هذه الدنيا فلذلك لا بــد من أن يختار نظام الاقتصاد الذي يتيح له نطاقا واسعا من الحرية الفردية ، لأنه إذا لم يعن فيه بالحرية الفردية فمن المستحيل أن يكون نطاق أعماله التي يراها أساسية لحياته المقبلة متسعا ، فلا بد أن يظن عندئـذ أن النطاق الضيق لأعمالـه الطوعيـة سيؤدى الي خسارة فادحة، فكأن الحياة الأخروية الأسمى مرجعها الأعمال الصالحة الطوعية و الأخلاق العالية، و بذلك يرى الانسان نفسه من الخاسرين، فالدين الذي يقول بالبعث بعد الموت و يرى هذه الدنيا مزرعة للاخرة ، لا بد أن يتمسك بالحرية الفردية في نظام الاقتصاد ما عدا الاضطرار الملح .

اهتمام الاسلام بالحرية الفردية فى نظام الاقتصاد

يجب أن لا يغيبن عن البال أن الاسلام أشد الأديان تمسكا بالبعث بعد الموت ، فلذلك هو يصر على المحافظة الشديـدة على الحرية الفردية ، لأن الانسان يكون أقــدر على إصلاح آخرتــه بأعماله الصالحة الحرة حسب سعة نطاق الحرية الشخصية ، لكن إذا كانت الحياة مغلولــة من كل النواحي بمختلف الأغلال ، فلا يمكن أن يكون الانسان حرا في عمل من أعماله ، و إذا كان مرغما في كل أمر ، فلا رجاء لثوابه في الآخرة ، إن الثواب منوط بالأعمال

الصالحة الطوعية، فاذا عمل الانسان مكرها مهما كان عمله خيرا، قيل له يوم الدين : هذا العمل ما عملته أنت بل هو من لينن، و ما قمت به أنت بل قام به ستالين، و ما أتممته بل أتمه انجيلز . فالأعمال التي يعملها الانسان مكرها لا تؤهله للأجر ، و من المستحيل أن يجعل المسلم الصادق الاسلام معتقدا بمحو الحرية الفردية ، إلا إذا رفض أسس الاسلام رفضا باتا . و من الممكن أن يكون هنا رجل ينتحل الاسلام ، فيسيئ بتعاليمه الظن و لم يعد يعتقد بالمبادئ التي وضعها الاسلام للاقتصاد ، لكن الذي يوقن بتعاليم الاسلام، و يعد مبادئه الاقتصادية من العناصر الاساسية لايمانه لن يقبل القضاء على مبدأ الحرية الشخصية أبدا .

بناء نظام الاقتصاد الاسلامى على أصلين

في ضوء الحقائق السابقة يمكننا أن نفهم في سهولة و يسر أن الاسلام إذا أسس نظاما اقتصاديا متزنا عادلا ، فلا بد أن يكون أساسه على مبدئين تاليين :

إن مبدأ تقسيم الأموال العادل و توزيع المكاسب الملائمة يجب أن يتأسس على التضحية الشخصية المتطوعة، و ذلك لكى تصبح الأوضاع الاقتصادية في العالم ، و لكى يتزود الانسان من دنياه لآخرته أيضا ، و لذلك إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من يلقم زوجته بلقمة محتسبا لأجل مرضاة الله فهو كالمتصدق ، فالآن مما يدعو الى التفكير بأن هذا العمل مما يخالطه هوى الانسان ، لأنه يحب زوجه و يهواها و يتمتع بالتودد اليها ، لكنه إذا غير نيته و جعل حبه و تفديته لها خاضعا لأمر الله و عد مرضاته عز و جل مدعاة لغرامه و هواه، فصار عندئذ نفس الفعل مؤديا

الى الأجر و الثواب، هو يطعمها كما كان يطعم من قبل، هو يكسوها كما كان يكسو من قبل ، لكنه بهذه الصورة إذا أحبها لأجل الله و تودد اليها لأمر الله عز و جل ، فانه بهذه الصورة لا يسعد زوجه فقط و لا يرضى نفسه وحده ، بل هو يستحق الثواب و الأجر من عند الله أيضا ، لأنه عمل ذلك لأجل مرضاته عز و جل .

و الأصل الثانى لاقتصاد الاسلام هو أن الاموال بما أنها لله وحده و هو الذي خلقها لأجل جميع مخلوقاته ، فلذلك الضرورات الاقتصادية التى تتبقى بعد العمل بالمبدأ الاول لا بد من إتمامها بطرق حكومية أخرى ، أى أن القسم الذي لا يتم عن النظام الطوعى ينبغى أن يسعى لأجل إتمامه بطرق قانونية ، و بذلك لا يسمح بالاختلال في النظام الاقتصادى السماوى .

ملخص الاقتصاد الاسلامى

فالاقتصاد الاسلامى عبارة عن اختلاط مناسب للحرية الفردية و التدخل الحكومي ، أي أن الاقتصاد الذي يقدمه الاسلام للعالم له ناحيتان، ناحية تسمح بتدخل حكومي محدود، و أخرى تتضمن الحرية الفردية الى مدى معلوم، فالمزيج المناسب لهاتين الناحيتين هو الاقتصاد الاسلامى بعينه، و الحرية الفردية إنما هى لأنها تكفل للانسان زاد الآخرة، و تنشط فيه روح الاستباق و التنافس، و التدخل الحكومى إنما هو لكيلا يتمكن الأغنياء من القضاء على إخوانهم الفقراء، كأن الأهتمام بالتدخل الحكومي هو لأجل إنقاذ الانسانية من الانهيار ، أما الحرية الفردية فهي لأجل المحافظة على روح التسابق و التزود للاخرة ، فالاسلام يتضمن المحافظة على الحرية الفردية لكى يتمكن الانسان بخدماته الطوعية من التزود للحياة المقبلة

و تقوى فيه روح التسابق التى لا تزال توسع له مجال التطور العقلى، و هو أيضا يبيح التدخل الحكومي المحدود ، لكيلا يتأسس الاقتصاد على الجور و الاستبداد لأجل التفريط البشرى ، و لا يصير حائلا دون شعب من شعوب الانسان . من الهين بعد إدراك هذه الحقيقة أن نعرف بأن الاسلام بصورة خاصة و الأديان الأخرى بصورة عامة ، ستنظر في هذه القضية لا من وجهة مجرد الاقتصاد فحسب ، بل من الوجهات الثلاث الدينية و الخلقية و الاقتصادية معا و ستقرر مصيرها الاقتصادى في ضوء هـذه المبادئ الثلاثـة، و إن الرجاء باقتصارها على وجهة نظر الاقتصاد فقط سيعد تدخلا في دين أهلها — الأمر الذي لن يصبروا عليه أبدا ، و الرجل الذي لا يعتقد بالدين يمكن أن يقتنع بمجرد الوجهة الاقتصادية ، لكن الذي يؤمن بدين هو لن يهتم بوجهة نظر الاقتصاد فقط ، بل إنه سيرغب في اتخاذ مسلك صحيح من وجهـة الاقتصاد ، عـادل من وجهة السـنن الأخلاقية ، مشروع من و جهة النواميس الدينية . بعد تقديم هذا الايضاح أريد أن أبين أن الاسلام قد أتاح بالمبدئين السابقين جو الحريه لكل فرد يزاول التجارة او الصناعة، لكنه حدد هذه الحرية بقيود لا تحول دون تقدمه الفكرى المشروع ، و لا تقضى على فرديته، بل تنقـذه أيضا من أخطار الحرية المنحلة . إن المفاسـد و أنواع الظلم و الاستبـداد و الاستغلال في التسابق الاقتصادى العالمى ترجع كلها الى بعض الأهواء النفسانية . و منها ما يدفع الانسان الى حيازة الأموال الطائلة، و مثل هذا الانسان يندفع في تيار جنونـه لاكتناز الثروات المقنطـرة ، منها انهارت الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، و منها عانى الفقراء من المجاعة و الاملاق ، و منها اضطربت الأرامـل لأجل قوتهن ، و منها بلغ الأيتـام من البؤس و الفـقر ، و لهـذه القسوة و الاستبـداد عوامل عديـدة قـد

تناولها القرآن بالذكر وكشف الغطاء عن الدواعي المثيرة لمثل هذه الروح الخبيثة .

دواعى اكتساب الثروة

يقول الله عز و جل :

إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الاولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، و في الآخرة عذاب شديد (الحديد) .

أى اسمعوا و عوا أن الذين يسعون وراء اكتساب الأموال، تدفعهم الى ذلك عدة دواع :

الداعى الأول هو اللعب ، أى أنهم مشغوفون بالعبث و اللعب و هذا الشغف يجرهم الى الاستغراق في الاكتساب ، و اللعب يعم القمار و الرهان وغيره، و الانسان يود أن يملك المال فيراهن في سباق الخيل ، فالانسان يتبع هذه الأهواء و يريد أن يملك لأجل تحقيقها ثروة .

و الداعى الثانى الذى بينه القرآن هو اللهو أى أن الناس يريدون أن يستكثروا من المال لكى يملكوا ثروة تغنيهم عن العمل و تريحهم من الكد و لكى يتمتعوا بالتكاسل و البطالة و يقتلوا أوقاتهم بلعب الورق و احتساء الخمر ، هذه الأمور أيضا من الدوافع لاكتناز الأموال .

و الداعى الثالث لاجتلاب المال هو الزينة ، أى أن الانسان يريد أن يلبس لباسا فاخرا ، و يركب مراكب فخمة ، و يتمتع بألذ الأطعمة و أشهاها .

و الداعى الرابع لاكتساب المال الذى صرح به القرآن هو ''تفاخر بينكم''، أى أن بعض الناس يدخرون الأموال لكى يزدادوا في أعين الناس عزا و شرفا، و يعرفوا فيهم بالغنى الطائل، حتى يقولوا للناس: أفلا تدركون مدى ثروتنا. و لقد رأيت أن هذا المرض قد استفحل فينا لدرجة تجعل بعض الناس يتباهون باعترافهم بعبودية الأجانب فهم يصلفون خلال أحاديثهم: ألا تدرون من أنا، أنا الذى كنت أدفع الألوف الى الحكومة البريطانية كضرائب، فكأنه بدلا من أن يشعر بذلة و خزيه و خضوعه لحكومة أجنبية هو يزهو بذلك و يفتخر، بل لقد رأيت أدهي من ذلك و أمر، أن بعض الهنود يفتخرون قائلين: إنى الخادم التابع لفلان الانجليزى الكبير. فيقول الله عز و جل إن من دواعى اكتساب المال هو التفاخر للناس و ترهيبهم بالثروة لكى يخضعوا للأغنياء.

و الداعى الخامس لاكتساب المال هو ''تكاثر في الأموال''، أى أن مجرد الحرص على اكتناز المال أيضا يدفع الانسان نحو الاستزادة منه، و لذلك الناس يولعون بالتفوق في حيازة الأموال، و إنهم ليتمنون أن جارهم إذا ملك مليونا، فعليهم إن يجتلبوا عشرة ملايين، و إذا كان عنده عشرة ملايين، فعليهم أن يكتنزوا عشرين مليونا، قد فكرت ما وسعنى فلم أجد من دواعى اكتساب الأموال إلا ما صرح به القرآن الحكيم.

نهى الاسلام من اكتساب المال لاجل أهداف غير مشروعة

بعد ذكر هذه الدواعى، يقول الله عز و جل: ''كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما''.

أى أننا نرى هذه المتع الدنيوية كسحاب يطبق السماء فيعجب له الزراع و يتوقع أن زرعه سينضر، ''ثم يهيج فتراه مصفرا'' لكن حينما يمطر ذلك السحاب يصير مطره دمارا، فبدلا من أن يخضر زرعه و تغزر غلته و يريح صاحبه، يجف الزرع و يذبل و ينخر حبه و أخيرا يصير ركاما من الهباء، كما يرى أن المطر إذا اشتدت غزارته دمر المزارع أو يضن المطر فيجف الزرع .

''و في الآخرة عذاب شديد و مغفرة من الله و رضوان'' أى و علاوة على الثمرات المريرة لهذه الاعمال التى يذوقها الانسان في هذه الدنيا سيعذب بها في الآخرة أيضا ، لكن الذين لا يخضعون لهذه الدواعى الدنيوية الخلابة بل يكبتونها كبتا ، فالله عز و جل يغفرهم بغفرانه و يفيض عليهم بمرضاته .

ثم يقول عز و علا : ''و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور'' أى أن معيشة الدنيا لهي خداع، فيا أيها الانسان المغتر لما ترى أننا نملك لك المغفرة و المرضاة كما نقدر على تعذيبك، فلماذا إذاً تنصرف عن مغفرتنا و رضواننا و لماذا تستعجل التوافه الدنيوية الحقيرة بالنعم السماوية العليا . و لقد جعل الله في هذه الآية الدواعى المثيرة الخلابة الدنيوية تافهة حقيرة، و يقول الله عز و جل إن جميع هذه الادوات التى تؤدى الى اكتساب غير مشروع للدنيا سيكون مصيرها كمصير زرع بهيج الى الجفاف و الدمار ، أى كما أن هذا الزرع لا ينفع صاحبه كذلك أسباب اكتساب الدنيا هذه أيضا لا تجدى نفعا، فلذلك عليكم أن لا تكتسبوا الدنيا لأجل هذه الأهداف الفانية لأنها تثير غضب الله، فاذا كان إلهكم يملك الفضل الواسع فلماذا لا تسعون للظفر به ؟ و لماذا تصمدون لهذه الأهواء التافهة الزائلة ؟ و من البين جدا أن الذى يتمسك بالاسلام ، لن يكتسب الدنيا متأثرا بالدواعى السابقة ، و إذا اكتسب شيئا خاضعا لأمر الله

بذله في الخيرات ، و بذلك لا يتسع البون بين الفقر و الغنى بل يسد هذا الفراغ ، لأن إبطال الدواعى السابقة لا يبقي منها شيئا يكتسب به الانسان لمصالحه الشخصية، لأننا لا نجد للاكتساب إلا ثلاثة طرق: أولا يكون الاكتساب طبق الضرورات الشخصية. ثانيا يكون الاكتساب أوسع و أوفر من ضروراته ولكن المكتسب ينفق ما يتوفر عن حاجته للمصالح العامة لبنى الانسان ، و هذا يفوز بمرضاة الله تعالى أيضا . ثالثا يكون الاكتساب لأجل الدواعى المنكرة السابقة ، أى لأجل اللعب و العبث ، و لأجل التنعم و الترف، و للتفاخر و المباهاة، و من أجل الحرص على المال .

و من الواضح أن آخر الطرق هو وحده مدعاة للشر و السوء ، و هو الذى يؤدى الى اكتساب غير مشروع يسبب الخسارة لسائر الناس، لكن الطريقين الاولين على عكس ذلك لا يؤديان الى سوء ، لأن الذى يختار الطريق الثانى و يكتسب أوفر من حاجته ، فلن يكون الداعى الى توفير أمواله إلا روح الاستباق في الخيرات، فيكون ماله المتوفر مبذولا لمصلحة الناس و خيرهم جميعا، و لن يتضرر به آحاد الوطن و مجتمعهم .

حظر الاسلام من استعمال الثروة فى غير محلها

و الآن أتناول الاحكام الاسلامية بهذا الصدد و كيفية منع الاسلام من النفقات في غير محلها بالتفصيل .

إن الله عز و جل يقول عن المسلمين المؤمنين : هم عن اللغو معرضون (المؤمنون)، أى المسلمون الصادقون هم الذين يتجنبون عن اللغو و العبث الذى لا طائل له من الناحية العقلية ،

مثل لعب الشطرنج و الورق و أمثالها من الالعاب الباطلة التى تبدد الوقت، الاسلام يرشد كل مؤمن إلى أن يتجنب هذه الملاهى و لا يضيع وقته عبثا في محافل الثرثرة، و أن لا يعيش حياة عاطلة . و بعض الناس يعتادون قتل الوقت بالاحاديث الفارغة في أندية الاصدقاء غير مبالين بضياع أثمن ساعاتهم، كما نرى أن أبا أحد من الشبان يتوفى عن تراث واسع لكن ابنه بدلا من أن يعمل على حفظه لا يفكر إلا أن يعيش متعطلا على حساب هذا التراث، و يبدد وقته مع أصدقائه البطالين الذين يختلقون له بأنواع الالقاب ، فمن قائل يا أيها الملاك العظيم، و يا سيادة ''لاله''، و يا باندت الكبير أنت كذا و كذا ، و كذلك كل واحد من أصدقائه يطرى في الثناء عليه و يبالغ في مدحه ، و ينقضى طوال نهاره في هذا الشغل من تناوب الأصدقاء و مجاذبة الأحاديث الفارغة و المبالغة في المدح و الثناء ، و هؤلاء الأشقياء يغرونه على السير في طريق المنكرات و يزينون له المتع الدنيوية من النساء و القمار و الخمر و غيرها من طرق الاسراف و التبذير ، و هو بدوره يقوم بخدمتهم و إطعامهم أحسن القيام ، إن استطاع فبقليل من المطيبات ، و أن أستطاع اكثر من ذلك فيمدهم بمائدته العامرة صباحا مساء ، لكن ليس كل هذه الخدمة لأجل فقرهم و لا لجوعهم و لا لاستحقاقهم المؤاساة ، بل لانهم جلساؤه و ندماؤه و يملئون نهاره سعادة و حبورا ، و الاسلام يحرم مثل هذه الاعمال تحريما قاطعا ، بل يقول إن المومنين هم الذين يبتعدون عن اللغو و يحترزون عن العبث، و لا يهملون و لا ينبغى لهم أن يعملوا أعمالا باطلة عند العقل التى تجعل الحياة عقيمة، و الرجل الذى يعيش على حساب مكاسب أبيه ولا يعمل بنفسه شيئا، عليه أن يجشم نفسه بالتفكير بأن تعطله هذا هل هو نافع لذاته أو شعبه ، و نرى أن ذلك ليس يفيد ذاته أو قومه

أو ينفع سائر الأمم الأخرى ، إنما هو يلقى بحياته الى هوة من البطالة و الترف ، و الاسلام لا يعترف بمثل هذه الحياة العاطلة ، فان ورث أحد عن أبيه مائة مليون روبية ، فالقرآن الحكيم يأمره أن لا يقتنع بهذا التراث الضخم، بل عليه رغم ذلك أن يكدح لأجل قوته و لايضيع وقته هدرا ، بل عليه أن يبذل كل ما يملك لأجل المصالح الشعبية و الدينية ، و إن كان غنيا عن الاقتيات الشخصى، فله أن يقوم بخدمات طوعية، و بذلك هو يتمكن من العمل المجانى لأجل وطنه و شعبه و دينه، و يحفظ وقته من الضياع أيضا و يبذل أوقاته الثمينة في محلها حتى يصبح أنفع ما يكون للناس ، و كذلك ينهى الاسلام عن الالعاب اللاغية التى تجعل الحياة باطلة . و لقد أوصى الرسول صلى الله عليه و سلم مؤكدا لما سبق بأن الحلى و لبس الحرير محرمان على الرجال ، و كذلك نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن استعمال الآنية الذهبية ، و الفضية ، غير أن النساء يجوز لهن استعمال الحلى ، لكن الافراط مكروه لهن أيضا على كل حال، لم يحرم الحلى على النساء تحريما باتا لأنهن محل الزينة ، غير أن الاسراف المفرط لحيازته و الذى يخل بالاقتصاد القومى ويؤدى الى تفاخر النساء بعضهن على بعض، أو يدفعهن نحو التمادى في الحرص و الشح ، هو غير جائز عند الاسلام، استعمال الحلى جائز لهن في نطاق محدود، لكنه محرم على الرجال تحريما قاطعا ، و كذلك نهى الرسول صلى الله عليه و سلم عن استعمال الآنية الذهبية و الفضية .

و يتضمن ذلك أيضا الأشياء الغالية النادرة التى يحتفظ بها الأغنياء في بيوتهم زينة و تفاخرا . و لقد رأيت بعض الناس يشترون الأشياء المهملة لأجل تزيين بيوتهم، بمثل الآنية القديمة و يظنون أنهم ظفروا بشيء ثمين نادر ، و بخاصة أهل اوربا لهم

عادة غريبة بأنهم يشترون بعض الأوانى التافهة بخمسة آلاف روبية أو عشرة، يزعمون أن هذه الأوانى من الآثار الهامة التى ترجع الى آلاف السنين قبل اليوم، أو يبتاعون البسط القديمة بأغلى ثمن و يعلقونها فى بيوتهم، مع أن مثل هذه البسط يمكن أن تشترى بخمسين او ستين روبية بصورة عادية، لكنهم يبذرون ثروتهم لمجرد أن يقصوا على الناس أن هذه البسط لفلان من الملوك، أو يرجع الى عصر فلانى، و الاسلام يعد جميع هذه العادات من اللغو و هي لا تعود على صاحبها بطائل، إنما يشترى الناس هذه الأشياء لأجل التظاهر بالثراء و إنهم يبددون لها أموالهم، و لقد نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم بعمله عن هذه الأمور، و قد صرح أن المؤمن لا يليق به أن يضيع وقته في مثل هذه الأعمال و يبدد أمواله لأجلها. و من أمثال هذه الاعمال الشائنة اليوم السينما و المسارح التي يشملها نهى الله عز و جل أيضا، لأن السينمايات و المسارح تستهلك جزأ كبيرا من موارد البلاد، حاسبت لذلك حسابا، فتبين لى أن مئات الملايين من الروبيات تبذر في السينمايات، و قد سمعت أن بلاهور نفسها خمسا و عشرين دارا للسينما. و أوسط مورد أسبوعى لكل سينما ألفان و خمسمائة روبية، و بهذا تصير الموارد الشهرية لكل واحدة عشرة آلاف روبية، و الموارد السنوية تتضاعف الى مائة و عشرين ألفا، و إن كانت السينمايات بلاهور عشرين على أقل تقدير، و بذلك تبلغ الأموال المستهلكة لها مليونين و أربعمائة ألف، و إذا فرضنا أن عدد السينمايات في جميع الهند على الأقل يساوى خمسين ضعفا للاهور، و الواقع أنه أكثر من ذلك، بلغ عددها ألف سينما في جميع الهند، و بهذه الصورة يبلغ الميزان الى مائة و عشرين مليونا، و إن أضيف إلى ذلك نفقات اللوازم السينمائية الأخرى من الخمور و المآدب

الحافلـة المترفـة ، فيبـلغ الحسـاب الى مائتين و خمسين أو ثلثمائة مليون روبيـة، و هـذا المبلغ الضخم ربـع موارد حكومة الهند ، كأن السينمايات وحدها تستهلك ربـع موارد حكومة الهند كلها، مع أن السينمايات لا تفيـد البلـد ولا الشعب شيئـا و لا تفيـد المتفرجين بها أيضا .

إن القرآن الحكيم يسـد جميع هـذه الطرق ، و يقـول إن المؤمنين هم الذين يبتعدون عن اللغو كل الابتعاد ، و لا يضيعون و لا فلسا واحـدا عـلى مظاهر اللغو هـذه ، إن الـدول الاؤربيـة المستقلة التي لا تبرح تسعى للنهضـة الاقتصاديـة في بلادها ، قد زادت الطين بلة ، إذ أنها تشجع على زيادة السينمايات و المسارح، إن عدد السينمايات في إنجلترا اليوم سيضاعف بعد الحرب بالتأكيد، لأن الحكومة ستستقل هـذا العدد بعد الحرب و تأمر ببنـاء مئـات منها جديدة ، لكى يتمتع بهـا الذين كانوا محرومين منها لقلتها، و لكى يبذلوا أموالهم و أوقاتهم في سبيل هذه المتعـة، لكن الاسلام ينهى عن جميع هذه المتع الضارة لبنى الانسان و يصرح علنـا بتحريمها القاطع ، فان تمسك الناس بهذه الأحكام، أمكن رجوع الأغنياء الى المساواة الى حد ما لأن أكبر حافز للاكتساب غير المشروع هو النفقات الكاسدة غير المشروعة .

نهى الاسلام عن الاسراف

و ثانيا أن الاسلام نهى عن الاسراف، و هو عبارة عن النفقات المسرفة في محلها كتشييد الأبنيـة الشامخة ، أو غرس الحدائق و البساتين لأجل الزينـة و التفاخر، و منها ما يعـد لأجل استثمار الفواكـه، فهي ليست بممنوعـة فى الاسلام، و لكن منهـا ما يغرس كمظـاهر للتنعم و البذخ ، كما نرى أن الملوك في العصر القديم

كانوا يأمرون باعداد البساتين الواسعة لمجرد التمتع بالرقص و الغناء و بذلك كانوا يبددون مئات الألوف لأجل احتظاظهم الشخصي، و كان ذلك إسرافا و أى إسراف. أما المتنزهات التى تعدها البلديات و تهدف بها الى ترفيه الناس و تفريحهم و تقوية صحتهم، فليست بممنوعة عند الاسلام، فالبلدية إذا أنفقت على مثل هذه المتنزهات التي يمكن أن يستفيد منها خمس مأة ألف إنسان، فالاسلام لا يمنعها حتي و لو أنفقت على ذلك مليون روبية، إن لاهور مثلا عدد سكانها تسعمائة ألف نسمة (في ١٩٤٥ ـــ المعرب)، فاذا أنفقت بلديتها عدة ملايين روبية لاعداد المتنزهات، فانفاقها هذا يكون مسموحا به جائزا كل الجواز، إذ سيستمتع بها تسعمائة ألف ساكن أو معظمهم، بل سيكون ذلك جائزا أيضا إذا استفاد بها مائة ألف فقط، و عندئذ يمكن أن نقول على الاكثر أن البلدية أنفقت على كل ساكن أربع روبيات أو خمسا، لكن ملكا إذا أنفق مئات الألوف على البساتين الخاصة لكى يتمتع بها هو و أهله فقط، و لا يسمح غيرهم بدخولها، و إنما يعنى ذلك أنه أنفق على كل واحد من أهله مائة ألف أو مائتى ألف، مع أنه لو أنفق مائة ألف أو مائتى ألف أو ثلاث أو أربعمائة ألف لمصالح عامة الناس، استفاد بها مئات الألوف و تقوت بها صحتهم. فالاسلام لا ينهى عن الانفاق على المصارف الجائزة، بل إنما ينهى عن إنفاق المال في غير محله و إتلاف حقوق بنى الانسان و الاستغلال منها استغلالا غير مشروع، فاذا مست الحاجة الى بناء دائرة تتضمن مئات الغرف لألوف العمال، كان بناؤها جائزا عند الاسلام و لو احتاج الى عشرين طبقة، لكن الذين يشيدون غرفا فخمة عن غير حاجة بغير داع أو مبرر، و ليس بناؤهم هذا إلا لأن يستجلبوا مدح الناس و ثناءهم، فان مثل هؤلاء يقترفون عند القرآن منكرا و يعده الاسلام إسرافا و تبذيرا، و الله تعالى سيؤاخذ أمثال هؤلاء الناس و يستجوبهم

على تبديد الأموال التي كان من حقها أن تصرف لخير الانسانية و النهوض بها ، و بذلك أصيب الاقتصاد الوطني و الشعبي بخسارة فادحة .

و ليس بنا حاجة للمثل البعيد ، إذ نرى مقبرة ''تاج محل'' في عقر دارنا ماثلة أمامنا ، إنني بنفسي معجب برؤيتها و أزورها أحيانا أيضا ، لكن الأموال الباهظة التي أهلكت لبنائها لهي غير مشروعة عند الاسلام . ما هي ترون حقيقة تاج محل ؟ إنها بناء رائع فخم شيد على قبر امرأة كزينة له أنفق عليه عشرات الملايين ، تلك الأموال لو أنفقت كصدقة أو عمل خيرى ، أو أسست بها مؤسسة كبيرة تقوم برعاية مئات الألوف من المساكين و اليتامى و البائسين حتى يظلوا يستفيدون منها جميعا الى مدة طويلة، و ينالوا نصيبهم من المطعم و المشرب و الملبس و المسكن ، لكان ذلك خيرا لصاحب تلك الأموال ، أما من ناحية فن البناء او هندسته الرائعة فنحن نقدر هذا العمل الفني العظيم و نزوره أيضا ، أما من ناحية الحقيقة الواقعة فلا بد من أن نعترف بأن أمثال هذه الأبنية التي يشيدها بعض الناس لأجل صيتهم الشخصي أو فخارهم أو لأجل رياء الناس فهي غير مشروعة عند الاسلام، لكن الأبنية التي تبني للمصالح الشعبية العامة او لضرورات حيوية أخرى هي جائزة ، مهما كانت شامخة فخمة . و قصارى القول أن تشييد الأبنية بلا مبرر أو ضرورة ملحة ، أو إعداد الحدائق و البساتين لأجل الزينة و المباهاة ، أو الاسراف في الأكل ، أو الاكثار من ألوان الطعام أو النفقات الفادحة على الملابس و الأزياء ، أو حيازة الخيل و السيارات الكثيرة بلا داع ، أو الاستكثار من السجاجيد و البسط الغالية بلا أية حاجة ، أو غلو النساء في توشية ملابسهن ، كل اولئك الأعمال الفاسدة قد نهى الله

و رسوله عنها في القرآن و الحديث ، و بذلك قد حددت دواعى اكتساب المال تحديدا معقولا .

تبذير الاموال لاجل السلطة السياسية

و كذلك إن الاسلام قد نهى عن تولية السلطة السياسية على أساس الثروة و الغني ، و قد سبق أن بينت أن القرآن يأمر بصراحة : و أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، أي عليكم أن تسلموا أعنة الحكم الى من هو أحق به ، و ليس من المعقول و لا المقبول في شريعة الاسلام أن يفوض الى أحد سلطة الحكومة لأجل ثروته و أمواله ، بل الله عز و جل يقول إنه من الواجب عليكم أن تسلموا المناصب الحكومية على أساس الاستحقاق فقط ولا على أساس الثروة و الغني، فالذين يكتنزون الأمول لكى ينالوا بها نصيبا من سلطات الحكم أو يظفروا بها بمناصب هامة عالية، فالاسلام يستنكر فعلهم هذا أشد الاستنكار و يأمر الأمة المسلمة بأن يرعوا عند انتخاب الحكام الاسحقاق و الأهليه و لا ينبغي أن يقلدو أحدا السلطة السياسية لأجل ثروته الطائلة .

الحرص على ادخار المال

ثم من الناس من يدخر الاموال الواسعة، و لقد نهى الاسلام أتباعه عن ذلك أيضا، كما يقول عز و جل :

> و الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون (التوبة) .

أى هـذا هي الكنوز التي ادخرتمـوها لأنـفسكم و أقاربكم و حرمتم منها عباد الله، فبما أن عامة الناس ما استطاعوا أن يستفيدوا منهـا لانكم ادخرتموها لأنفسكم فقط ، فاليوم نعيـد ذلك الذهب و الفضة اليكم ، لكن لا بالصورة التي كانا بها عندكم، لأن الاستفادة منها متعذرة في الآخرة، بل بحيث نذيبها لكم و نكوى بها جباهكم و ظهوركم، لكى تشعروا بأن كنز الذهب و الفضة و حرمان الناس منها لمعصية كبرى . إن هذا المثل الذى بينته الآن، و إن كان غير متصل بالنفقات الخاطئـة بل هو يرتبط بالآدخار و الاكتناز، غير أنه في الواقع يشبه النفقـة الخاطئـة، لأن النفقـات الخاطئة كما تحرم الناس من الاستفادة بالمال كذلك الادخار و الكنز يؤدى الى نفس النتيجة ، فانها سيان من هذه الناحية .

و جملـة القول أن الاسلام قد رفض و استنكر جميع المغريات على الاكتساب المفرط و كنز الأموال بغير مبرر ، فهذه الدواعي المغريـة هي التي تسبب الجشع في الاكتسـاب أو حرمان النـاس من الأموال ، فالاسلام إذا حرم تلك الـدواعي و الأسبـاب ، فمن المستحيـل لمسلم أن يكنز الأموال كنزا يعرقـل طريق التقـدم للانسان ، كما نرى أن بعض النـاس يربون الجياد لأجل السباق و ينفقون عليهـا مئـات الألوف، أو يبـددون الألوف في مجالس القمار ، لكن لا يجوز لمسلم حسب التعاليم الاسلامية أن يربي جياد السباق ، إنه يستطيع أن يملكها للركوب ، و لكن لا يجوز لـه أن لا ينفك ينفق مئات الالوف على جياد السباق . فعند ما تزول عنه هذه الدواعى المغرية، تزول عن قلبه الرغبة في الاكتساب المفرط أيضا، هذه الرغبة تشتد إذا توهم الانسان أن فلانا يملك مائة ألف فعلي أن أكتسب مثله ، أو أن فلانا يربي جياد السباق فعلي أيضا أن أشتري الجياد، أو إذا كان مشغوفا بحب المال و أراد أن يكنز المال لأجل

الشغف به، لكن الاسلام لما نهاه عن جميع هذه الأهواء ، فلن ينصرف الى الاكتساب المفرط أبدا.

مداواة الطباع الضعيفة

وعلى الرغم من هذه التعاليم القيمة ، كان من الممكن أن تميل الطبائع المعتلة إلى الاكتساب المفرط ، ولم يكن مجرد الوعظ ليفي بهذا الغرض، وإن ما قلته اليوم هو أيضا وعظ يمكن أن يستفيد منه إنسان ، لكن نجد في الدنيا بعض الطبائع المعتلة المنحرفة التي لا تستعد للاستفادة من المواعظ ، فنظرا الى هذا العنصر الضعيف المنحرف الذى لا يبالى بالأقوال ، قد وضعت الشريعة الاسلامية شرائع يفرض على الحكومة تطبيقها، وبها يستحيل الاكتساب المفرط، وهي ما يلى :

سد باب تحصيل الثروة غير المشروعة فى الاسلام

تحريم الربا : أولا وقبل كل شيء حرم الاسلام الاقراض الربوى والاقتراض الربوى كليهما ، وبذلك حدد نطاق التجارة ، ومما أستغربه أن طبقتنا المثقفة مولعة بمبادئ الشيوعية من ناحية ومشجعة للنظام الربوى من جهة أخرى ، مع أن أهم عامل لتدمير الاقتصاد العالمى هو الربا، وبه يتمكن تاجر محتال نبيه من الاستيلاء على مئات الملايين ، ثم بهذه الأموال الباهظة يسيطر على الاسواق التجارية العالمية ويؤسس مصانع كبرى ويسخر بها عشرات الالوف ويرغمهم على معيشة العبودية غير المنقطعة ، وإذا أعددنا قائمة لأصحاب الملايين في العالم ، وجدنا أن معظمهم هم الذين بلغوا الى تلك المكانة المرموقة عن طريق الربا، هم يبدؤون تجارتهم برأس مال لا يزيد عن أربعة الآف، لكنهم يفوزون

شيئا فشيئا بثقة تجارية واسعة ، حتى أنهم يستقرضون مئات الألوف أو يستزيدونها على حسابهم من المصارف الكبرى ، و في بضع سنين إنهم يستثمرون و يحولون مئات الالوف هذه الى مئات الملايين، أو إن شخصا لا يملك إلا رأس مال ضئيلا، لكنه يتمتع بتفكير خصب، و لحسن حظه هو يتمكن من الاتصال و المصادقة مع أمين لأحد المصارف و يستقرض منه مائة أو مائتى ألف أو أربعمائة ألف، و في بضعة أعوام هو يستثمرها و يربح بها أضعافا مضاعفة حتى يصبح صاحب الملايين . فبالجملة إذا فكرنا في تاريخ كبار التجار في العالم ، تبين لنا أن واحدا من المائة على أكثر تقدير يكون قد نجح على أساس جهوده الشخصية، أما سائرهم من تسعة و تسعين فانهم كلهم أسسوا أعمالهم التجارية على الاقتراض الربوى من المصارف ، فسرعان ما صاروا أصحاب الملايين لأجل ذكائهم المتوقد و روعوا العالم بثرائهم الواسع . فالربا هو من أكبر العوامل لتحطيم الاقتصاد العالمى و أعظم عقبة في طريق تقدم الفقراء التي تذليلها و إزاحتها من أوجب واجبات بنى الانسان . إن هؤلاء المرابين أصحاب الملايين إن لم يتمكنوا في بداية أمرهم من الاقتراض الربوى من المصارف بسهولة ، كان لا بد عندئذ من حدوث واحد من أمرين، إما إنهم اضطروا لاشراك الآخرين في تجارتهم ، أو لم يستطيعوا تنمية تجارتهم الى مدى يعرقل طريق التقدم للمتأخرين و يشجعهم على سد هذا الطريق، الأمر الذي يؤدي الى تقسيم عادل للأموال و يمنع الاكتناز المفرط عند طائفة خاصة من الناس ، ذلك الاكتناز الذي هو عقبة كؤود دون التقدم الاقتصادي و ضربة قاصمة له . لكن من المؤسف جدا أن الناس يرون هذه الأضرار البالغة للربا، لكن رغم ذلك هم يلقون بأنفسهم الى شباك الربا كما يلف العنكبوت

رغم ذلك هم يلقون بأنفسهم الى شباك الربا كما يلف العنكبوت حولــه النسيج ، و لا يتفكـرون بأن عملهـم هــذا سيـؤدي البلاد و الشعب إلى نتائج وخيمـة . و الشيوعيون أيضا ليسوا بأبرياء من هذه التهمة ، هؤلاء أيضا لا يمتنعون عن استئصال هذه الشأفة التي تنبت الرأسمالية فحسب بل لا يستنكرونهــا أيضا، نري ألوفا منهم بل مئات الألوف الـذين يقرضون بالربا ، و بذلك هم يسـاعدون على تثبيت جذور الرأسمالية عن طريق غير مباشر .

تحديد الربا الشــامل

إن الاسلام قـد حدد الربا تحديدا يشمـل نظامـه حتى بعض الشؤون التجـاريـة التي لم تعرف عنــد العامـة بالربا ، فلا يبقى جائزة لبني الانسان . و الاسلام حدد الربا بأنـه كل عمل جر نفعـا يقينيا ، فحسب هــذا التحديد ستعتبر كل الجمعيات التجاريـة الكبرى غير مشروعة ، لأن هـذه الجمعيـات إنمـا تهدف الى القضـاء عـلى المنافسة التجارية ، و تمكين التجار من اجتلاب الارباح التي يهوونها . و مثل ذلك أن خمسة عشر او عشرين تاجرا من بلد واحد يجتمعون و يقررون ثمنـا معينـا لشيء و يتنازلون عن المنافسة ، الأمر الذي يؤدي الى الغلاء، لانهم إذا أقروا مثلا أن هــذه الشيء يجـب أن يباع بخمس روبيات مع أنه لا ينبغي أن يتعدى من الوجهة التجارية عن روبيتين، و بما أن قرارهم هذا يكون متفقا عليه، لذلك سيضطر عامة النـاس الى ابتياعـه بهذا الثمـن الغالى ، لأنهم لا يجـدونـه في أي مكان بأقـل من ذلك الثمن ، إذا ذهبـوا الى أحـد من هـؤلاء التجار أخبرهم أن ذلك بخمس روبيات ، و هكذا دواليك إذا ذهبوا الى ثان او ثالث واجهـه كل واحـد بنفس الجواب ، و أخيرا إنهم سيضطرون لاشترائـه بنفس الثمن . إن صغار التجـار أولا لايجرؤون عـلى منـافستهم ، و إذا بـدأ أحـد الصغــار يبيع ذلك الشيء بثمن

أرخص ، مثلا أخذ يبيعه بروبيتين ، فعندئذ هؤلاء التجار الكبار المتحدون يشترون كل بضاعته بذلك الثمن الرخيص ، و بذلك يدفعونه في بضعة أيام الى هوة الافلاس، فطريق الجمعيات التجارية هذا أمر خطير جدا ، و يحطم الاوضاع الاقتصادية العالمية . مرة بدا لى بصدد المشاريع التجارية للجماعة الأحمدية أن أستزيد علما بتجارة الشمع الأحمر ، و هذه التجارة لا تعدو عن نطاق بضع مئات الألوف ، و يقتصر إعداده على بضع مناطق خاصة من الهند منها ولاية ”بتيالة“. فتبينت أن شركة أوربية مسيطرة على هذه التجارة ، فبحثت عن السبب فعلمت أن التجار الآخرين لا يملكون من رأس المال إلا مليونا و نصفا على الأكثر ، لكن رأسمال هذه الشركة يتراوح بين ثلاثمائة و أربعمائة مليون، و علاوة على رأسمال ذلك عرفت أن هذه الشركة تستولى على تجارة القمح و تجارة القماش و تجارة العنب أيضا، و كذلك محتكرة بتجارات أخرى أيضا، فاذا قام أحد من التجار ضدهم ببضع مئات الألوف و يبدأ بتجارة الشمع الأحمر ، قاومته هذه الشركة بتخفيض مدهش في أثمان هذه البضاعة، فيعود الى بيته مفلسا متأسفا على ما خسر، و لا يستطيع أن يقاومها هذه التاجر الحديث العهد و لا يوما واحدا . و أوضح ذلك بمثال تاجر يبدأ تجارة الشمع الأحمر على أساس مليون روبية، و يرجو ربحا وفيرا ، فخفض سعره بالنسبة الى سعر تلك الشركة ، لكن الشركة بدورها إذا وجدته يقاومها ، خفضت سعرها الى درجة يتعذر معها للتاجر أن يحتفظ حتى برأسماله ، و أخيرا يلجأ الى نفس الشركة يبيع لها كل ذخائره بسعر أخفض من سعر إشترائه ، فالشركة لن تخسر بذلك التخفيض المؤقت، لأنها سترفع سعرها بعد هزيمة منافسها ثانية ، فبهذه الصورة تظل الشركة مسيطرة على تجارة الشمع و لا يجرؤ أحد على منافستها .

و قصارى القول أن كل جمعيات الشركات التجارية الكبرى هي تدمر الانسانية جمعاء تدميرا ، و بما أن هذا الطريق من التجارة يضمن الربح الأكيد ، فلذلك الاسلام يحرمه طبق شرائعه السالفة الذكر .

أما طريق نقابات شركات الانتاج فهو أيضا في نفس الوضع الخطير ، هذا الطريق أيضا غير مشروع من وجهة نظر الاسلام . إن نظام جمعية الشركات يشمل تجار بلد واحد ، لكن نظام نقابة الشركات الانتاجية يحوي تجار بلدان مختلفة المشتركين الذين يقررون أننا سنبيع بضاعة فلانة بسعر كذا و كذا و لن نبيعها بأقل منها ، فمن ناحية البلاد نحن نتناول مثلا الهند ، فان اتحد تجارها على تسعيرة واحدة كان ذلك طبق نظام جمعية الشركات المحتكرة (Trust)، أما نظام نقابة الشركات الانتاجية (Cartel) فهو مثلا إذا اتحدت شركات أمريكا و إنجلترا ، أو توافق تجار أمريكا و إنجلترا و ألمانيا، أو تجار الهند و إنجلترا، إذا تحقق مثلا هذا الاتحاد الأخير على بيع الأشياء الكيماوية، و في الواقع إن صناعتها مقصورة اليوم على البلاد الثلاثة الأخيرة ، و توافق تجارها على ترك التنافر في الأسواق ، و أجمعوا على سعر واحد للبيع ، اضطر سائر العالم باشتراء تلك الأشياء بأسعارهم المقررة و دفع بغيتهم اليهم من الربح . فطريق نقابة شركات الانتاج هذا قد بلغت خطورته الى درجة جعلت الحكومات نفسها مضطربة حتي أن بعضها قد رفعت القضايا ضد هؤلاء التجار ، و فرضت عليهم العقاب ، غير أن الاسلام بما أنه قد حرم جميع هذه الصور لكيلا تحتكر طبقة خاصة بثروة البلاد و لكى تظل تلك الثروة دولة في جميع طبقات الشعب ، و يتمكن بها الفقراء من إصلاح أوضاعهم الاقتصادية ، فلذلك هذه الطرق كلها محظورة في الاسلام .

الاحتكار ممنوع

كذلك أوصى الاسلام أتباعه بأنكم إذا صنعتم بضاعة أو اشتريتموها فليس لكم أن تحتكروها الى غلاء الأسعار، و إذا احتكر تاجر بغية غلاء الأسعار، و لا يبيع بضاعته للناس، فانه من وجهة نظر الاسلام يقترف عملا غير مشروع، و أيضا إذا ملك تاجر القمح، و الناس يريدون أن يشتروه منه لأجل حاجتهم و احتكره نظرا الى غلائه في المستقبل و منع بيعه للناس، ارتكب حسب التعاليم الاسلامية معصية. و الناس يظنون أن ضابط المبيعات من مصطلحات هذه العصر الخاصة، مع أن هذا الضابط منفذ في الاسلام منذ أوائله، و الانجليز هم الذين اختاروه اليوم، لكن الاسلام كان قد منع الاحتكار قبل ثلاثة عشر قرنا. و الاحتكار عبارة عن منع مبيع طمعا في بيعه بثمن أغلى، و إن عرف عن شخص بأنه محتكر و الحكومة الاسلامية قائمة، فعليها أن ترغمه على بيع بضاعته، فان لم يستعد لذلك، فعلى الحكومة أن تستولى على ذخائره و تبيعها بثمن مناسب، على كل حال لا يجوز لاي شخص أن يمنع بضاعته من البيع نظرا الى غلائه. و لا شك أن الاحتكار بمعناها اللغوى يختص بالغلال، لكن تفقه هذا الحكم و هو عنصر حيوى في الاسلام يوسع نطاقه و يعممه، فعندئذ احتكار كل ما يحتاج اليه عامة الناس يعد من وجهة نظر الاسلام غير مشروع.

نهى الاسلام عن تخفيض الاسعار المفرط

و علاوة على ما ذكر، إن الاسلام قد نهى عن التخفيض المفرط للأسعار، و كما سبق أن ذكرت أن تخفيض الأسعار أيضا من وسائل الاثراء غير المشروع، لأن التجار الأقوياء بهذه الحيلة يرغمون صغار التجار على بيع بضاعتهم بثمن بخس و بذا يدفعونهم

نحو الافلاس . و حدث في عهد عمر رضى الله عنه أنه كان على جولة استطلاعية في السوق ، فرأى رجلا أجنبيا يبيع عنبا جافا بسعر أرخص جدا و لم يمكن لتجار المدينة أن يبيعوا نفس العنب بذلك السعر، فأمره عمر رضي الله عنه إما أن يرحل عن السوق أو يبيع بضاعته بنفس السعر المعتدل الذي يزاوله تجار المدينة ، فسئل عن السبب ، فقال إن أذنت له بذلك ، أدى ذلك الى خسارة تجار المدينة الذين يبيعون بأسعار معتدلة ملائمة . و لا شك أن بعض الصحابة رضي الله عنهم عارضوا عمر رضي الله عنه بقول الرسول صلى الله عليه و سلم إذ نهى عن التدخل في شؤون السوق ، لكن اعتراضهم ذلك لم يكن صحيحا ، لأن المراد بالتدخل في السوق هو التدخل في شؤون الانتاج و الطلب، و هذا التدخل لا شك في إضراره ، و على الحكومة أن تتجنبها ، و إلا فكان عملها مخالفا للمصالح العامة ، و كذلك يؤدى ذلك الى انهيار التجار . و قد جربنا ذلك في حاضرنا القريب، إن الحكومة فرضت تسعيرة موحدة للقمح في جميع البلاد فأدى ذلك الى ركود الحركة التجارية و تعطلها ، لأنه من المستحيل لرجل حازم أن يتوقع أن التاجر يمكنه البيع و الشراء حسب التسعيرة ، فآل الأمر الى تعطل تجارة القمح ، و التسعيرة قفزت من ست روبيات الى ست عشرة روبية (في السوق السوداء)، و ما كان من الممكن للناس أن يتمسكوا بالتسعيرة فيجوعوا عيالهم ، فكانوا مضطرين لان يشتروا القمح بكل ثمن سها غلا ، و لأن المعيشة في بلادنا تتوقف على القمح ، فلذلك ما كانوا يجرؤون على إبلاغ الحكومة بالشكوى ضد التجار الذين كانوا يهيؤون لهم القمح بأسعار السوق السوداء . و لقد استلفت أنظار الحكومة قبل أشهر الى أن قانونهم هذا سيدفع الى عواقب خطيرة، لكن الحكومة لم تصغ الي، و أخيرا بعد اضطراب شديد

وضجيج طويل ثابت الحكومة الى رشدها ، ولقد كانت الحكومة تبرر قانونها بكونه في مصالح المزارعين، لكن النتيجة كانت معاكسة لذلك تماما، لأن المزارعين هم الذين أفلسوا ، والتجار هم الذين ربحوا أرباحا خيالية . وحادى القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التدخل الجائر في أسعار السوق ، وعن صرف النظر عن مبدأ الانتاج والطلب ، أما الأسعار غير المناسبة مرتفعة كانت أو منخفضة فلم ينه الرسول عن التدخل فيها ، وليس أدل على ذلك من نهيه صلى الله عليه وسلم عن الاحتكار الذى لا يهدف تحريمه إلا الى منع الغلاء المفرط، وهذا النهى هو عين التدخل في أسعار السوق لكنه تدخل مشروع ، فتبين أن نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التدخل في أسعار السوق إنما كان عن تدخل غير مناسب، ولم يكن عن تدخل تسمح به مبادئ الاقتصاد، وفعل عمر رضي الله عنه كان يوافق مقتضى الشريعة كل الموافقة وكان مظهرا رائعا لكمال شريعة الاسلام .

وقصارى القول أن هذه الحيل الثلاث هي التي يتذرع بها الناس للاستيلاء على الثروة استيلاء غير مشروع ، فلذلك نهى الاسلام عنها نهيا ، وبذلك سد باب الادخار المفرط غير المشروع للثروة .

العقبات الاخرى دون الادخار المفرط

بما أنه كان من الممكن أن يتعدى بعض الناس هذه السدود من النواهى والقيود بذكائهم واحتيالهم، ويتطرقوا الى اكتساب مفرط يؤدى الى ادخار متراكم ويتضرر به الفقراء ، ولذلك قد اقترح الاسلام للقضاء على هذه المخالفات ما يلى من الوسائل :

الزكاة : أولا هو أمر بأداء الزكاة، و هي عبارة عن أن المسلم إذا امتلك من عملة الذهب و الفضة أو من أموال التجارة قدرا خاصا و حال عليه الحول، فللحكومة أن تفرض عليه ضريبة سنوية بقدر اثنين و نصف بالمائة. و هذه الضريبة ستصرف لأجل مصالح الفقراء و المساكين، فاذا كان عند شخص أربعون روبية مثلا مضى عليها عام، فعليه أن يدفع للحكومة روبية واحدة كضريبة الزكاة. فليتضح أن الزكاة ليست بضريبة الدخل، بل إنها ضريبة على رأسمال مدخر تؤخذ لأجل مصالح الفقراء، و الزكاة مفروضة على كل نوع من المال مهما كان من العملة أو الحيوان أو الغلال أو الحلي أو من بضاعة تجارية أخرى، إلا الحلي الذى تستعمله النساء بأنفسهن أو يعرنه الفقيرات من النساء، فليس عليه زكاة، لكنه إذا استعملته النساء و لم يعرنه للفقيرات، فأداء زكاته أيضا أولى عند فقهاء الاسلام، لكن الحلي الذى لا يستعمل بصورة عامة فأداء زكاته واجب أشد الوجوب، و لقد أمر بها الاسلام أمرا مؤكدا. هذه الزكاة واجبة كل سنة ما دام أحد يملك نصابها، و ليست مفروضة على رأس المال فقط بل هي تشمله هو و أرباحه أيضا. فان تمكن أحد من ادخار بعض أمواله رغم القيود و الشروط، فمن حق الحكومة الاسلامية أن لا تكف من أخذ ضريبة الزكاة منه، لأن وجهة نظر الاسلام في أموال الأغنياء أنها لا تخلو عن حقوق الفقراء و جهودهم، لذلك وضع الاسلام قانون الزكاة الذى يسترد من الأغنياء حقوق الفقراء.

الخمس : و السبب الثانى الذى يؤدى الى الادخار المفرط عند بعض الناس، هو اكتشاف المعادن، و قد عالج الاسلام هذا المنفذ بفرض الخمس على صاحب المعدن، هذا الخمس على إنتاج المعدن

و إن لم يمض عليه شهر واحد فضلا عن سنة، و علاوة على ذلك إن نصيب صاحب المعدن الذى يوفره من الأرباح إذا مضى عليه عام ، فرضت عليه أيضا الزكاة ، و يتكرر دفعها كل سنة . فكأن الحكومة تصير بهذه الصورة مساهمة في المعدن، و الارباح التى يوفرها أصحاب المعادن أيضا خاضعة لضريبة سنوية للنهوض بأوضاع الفقراء ، و عند تمام السنة سيطلب منه جباة الحكومة الاسلامية نصيب الفقراء منها .

التطوع : و النفقة الثالثة بعد النواهى و القيود هي التطوع، و الاسلام قد أوصى أتباعه بالتصدق على الفقراء و اليتامى و المساكين و ببذل شيء من الاموال لأجل تربيتهم، هذه الوصية أيضا تساعد على تحديد نطاق الادخار .

تقسيم الارث : و إذا توفر عند شخص مال رغم الموانع السالفة الذكر، و نجح في حيازة ممتلكات واسعة، فالحكومة ستقوم بعد وفاته بتوزيع تراثه في الورثة . و إن الأمر بتقسيم الارث في الشرع الاسلامي إنما يهدف الى أن لا يتمكن أحد من تسليم تراثه الى شخص واحد بل يجب أن يوزعه في الورثة ، و قد جعلت الشريعة في هذا التقسيم سهما للأولاد، و حقا للوالدين، و حظا للزوجة و نصيبا للزوج، و في بعض الأوضاع جعلت فيه سهما للاخوة و الأخوات أيضا . و لقد أوضح القرآن جليا أنه لا يجوز لأحد أن يبدل هذا التقسيم ، أو أن يسلم كل إرثه لأحد من الأقارب ، و مهما كان ما تملك فان من واجب الشرع أن ينفذ فيه التقسيم بين ورثته و لو بالاكراه ، و يعطى كل ذى حق حقه المفروض في القرآن . و من الغريب جدا أن الناس بينما يشجعون الربا الذى هو أعظم

عامل للتقسيم الجائر للثروة، هم يعارضون التقسيم الوراثى الاجبارى، و يسمحون بأن يوصي المتوفى بجميع مالـه لأحد أبنائه، مع أن الثروة بهذه الصورة تظل منحصرة في عائلة واحدة. لكن حسب مبدأ التقسيم الوراثى الاسلامى إن التراث مهما كان واسعا، يتقلص شيئا فشيئا حتى ينحط أغنى العائلات الى مستوى عامة الناس، و بالخضوع للمبدأ الاسلامى لا يمكن لأحد، مهما كانت ممتلكاته أو أمواله، أن يتعدى مدى ثروته عن ثلاثة أجيال أو أربعة، من المتعذر جدا أن تمتد الى هذه الغاية، لكن بعدئذ ستتلاشى و يضطر الجيل التالى الى أن يكدح و يكد لأن يفوز بممتلكات جديدة. إن أوربا و أمريكا تزخران بكبار الأغنياء النبلاء الأثرياء، لأن دستور إنجلترا يقر بوراثة أكبر الأبناء فقط، و الولايات الأمريكية أيضا تسمح للأب أن يسلم جميع ممتلكاته لأحد أبنائه و يحرم سائر ورثته من الوالدين و الزوج و الزوجة و الأخوة و الأخوات، ثم أحيانا يوصى بعض كبار الأغنياء هناك بأنه سيترك مليونا، تسعمائة ألف لابنه الاكبر و مائة ألف الباقى لسائر أقاربه. لكن الاسلام يصرح علنا بأن هذا التصرف غير مشروع، إن شرف عائلتكم و عظمتها لا تستحق أية أهمية تجاه مصالح المجتمع العام، و إننا لا نبالى بعلو نسب عائلتكم و سمو مكانتها، إنما نريد أن يستمر التقسيم المتكرر حتى لا يضطر الفقراء لمنافسة الأغنياء، و يظل باب التقدم مفتوحا عليهم.

و بالجملة إن الاسلام قد ذلل العواطف الثائرة، و حطم جميع الدواعى المثيرة للاثراء الفاحش المفرط من ناحية، و حظر جميع النفقات اللاغية قائلا لن نسمح لكم بها أبدا من ناحية أخرى، من ناحية ثالثة حرم جميع الطرق المؤدية الى أرباح يقينية، و من جهة رابعة بأداء الزكاة و التطوع بالصدقة. ثم إذا تمكن أحد

رغم هــذه الأحكام الرادعــة من اكتسـاب ثروة متوفرة بذكائـه و خيف على أن عائلته ستعرقل طريق التقدم للفقراء ، فعندئذ أمر الاسلام بتوزيع أمواله بعد وفاتـه . و إذا ملك أحد عشرة ملايين روبية و له عشرة أبناء تلقى كل واحد منهم بعد وفاته مليونا واحدا، و إن كان لكل واحد منهم عشرة أبناء أيضا، توزع المليون الواحد الى مائــة ألف لكل واحـد، و في الجيـل الثـالث يقل السهم الى عشرة آلاف ، فكأن عشرات الملايين لأكبر التجـار ستتلاشى فى ثلاثة أجيال أو أربعة ، و بذلك تزول عن طريق الفقراء عقبة كبرى الى الابـد . و الوقف هو المانع الوحيـد للتقسيم الوراثى ، لكن الذى يريد أن يقف أمواله على الفقراء و المصالح العامة ليس بحاجة الى الوسائل غير المشروعة للاثراء .

إذا طبقت هــذه الأحـكام أحسن التطبيق ، عادت الأمـوال المتوفره عن حاجـة النـاس إما الى الحكومـة أو الى عامـة النـاس أو يتوزع بين الاؤلاد ، على كل حال لم يعد أحد غنيا ، و إن صار أحد بهذه الصفة فلن توجد عائلــة تدوم على تقييد الفقراء بسلاسل العبودية لأجل وجاهتها العائلية أو أبهتهـا النسبية . و من المؤسف جـدا أن المسلمين ما عملوا بهـذه الأحكام حق العمـل ، إن الأمر بأداء الزكاة موجود ، لكنهم لا يؤدون، و قد نهوا عن جميع صور الاسراف ، لكنهـم لا ينتهـون ، و قــد أوصوا بتقسيم الارث لكنهـم لا يطبقون أحكامه، لكن رغم ذلك بعضهم يعملون بها بعض العمل، لذلك نرى أن البون بين الأغنيـاء و الفقراء في البلاد الاسلاميـة ليس مثل الفرق الشاسع بينهما في البلاد الاخرى. لكن هذه الوسائل الرادعة أيضا ليست بكفيلة لاستئصال المرض ، و كان من الممكن أن تعود الأموال الحكومية المحصلـة الى الأغنيـاء و يستردوا تلك الأمـوال الى حيـازتهم ثانيـة ، و لقــد اقترح القرآن علاجا لهـذه

المشكلة أيضا، و لذلك هو فرض على الأموال العائدة الى الحكومة قيودا متنوعة .

المحافظة على الأموال الحكومية لئلا تبذل لتقوية الأغنياء

إن الله عز و جل يقول :

ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل، كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، و ما آتاكم الرسول فخذوه ، و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله ، إن الله شديد العقاب (الحشر) .

أى أن الاموال التى تعود الى الرسول بعد الانتصارات فيما يجاوركم من المناطق إنما هي حق الله و رسوله و أهل القربة اليها و اليتامى المسلمين و مساكينهم، و للمسافرين الذين يتجولون في مختلف البلاد لأجل نشر العلوم و إعلاء كلمة الله ، و إنما أوصيناكم بهذه الأحكام لئلا تعود هذه الأموال الى الأغنياء ثانية و تصبح مقصورة على التداول بينهم . فعليكم أن تفكروا في هذه الآيات كيف اهتم الله بالمحافظة على حقوق الفقراء ، و كيف أحكم أسس الاقتصاد الاسلامى أيما إحكام ، فيقول الله عز و علا و لقد أسسنا لكم هذا الاقتصاد الاسلامى الرائع لكيلا تصيب الاقتصاد الاسلامى هزة أو اضطراب ، فلو أطلقنا للناس سراح الحرية ، و لم نفرض الحقوق لارتدت الأموال الى الأغنياء و لبقى الفقراء كما كانوا بائسين، و لقد وضعنا بهذا الصدد قانونا و هو : أنه لا يجوز أن ترجع الأموال الحكومية الى الأغنياء ثانية ، و بهذه الأحكام قد خص الله الأموال الحكومية بالفقراء و المحرومين الذين تعترض طريقهم العقبات .

و المراد هنا بحق الله و رسوله في الواقع أيضا هم الفقراء ، و الحكمة في تسمية الله و الرسول أن الحكومة أحيانا تحتاج الى الانفاق على تأسيس المعابد ، و آونة تلجأ الى الانفاق على تشييد المدارس و المستشفيات ، ولو اقتصرت الآية على ذكر الفقراء فقط لكان للناس مساغ للاعتراض على الحكومة بأنها تتصرف فيما يختص بالفقراء و تنفقه لبناء المعابد و المستشفيات و الشوارع و المدارس، و للرد على هـذا الاعتراض قد وضعت كلمتا الله و رسوله ، لان الرسول وجود فان ، فالمراد باسمه النظام المؤسس بيديه .

ثم إن حق ذى القربى الذى صرح به، ليس المراد به أقارب الرسول صلى لله عليه وسلم كما زعم بعض الناس بأن لأقارب الرسول أيضا حقا في أموال الحكومة، لأن الرسول صلى الله عليه و سلم قد صرح علنا بأن أهل بيته لا يحل لهم أخذ الزكاة أو الصدقة، و في الحقيقة إن المراد بذوى القربى ليسوا بأقارب الرسول من ناحية اللحم و الدم بل المراد به اولئك الذين يشتغلون فى عبادة الله و خدمة دين الله المتين ليل نهار ، بذلك هم ينضمون الى عيال الرسول . فكأن الله عز و جل أكد بقوله ذى القربى بأن الذين يقومون بخدمة الدين يجب أن لا يعدوا كوجود عاطل، اولئك هم الذين يريدون التقرب الى الله و يسعون لتقريب الآخرين اليه ، و هم الذين يستحقون أن تنفق عليهم أموال الحكومة، فالعلماء الذين يقومون بتدريس القرآن أو الحديث أو يعملون على نشر الدين أيضا ينبغى أن تنفق عليهم هذه الا أموال حسب الآية، لانهم إذا استغرقوا في الخدمات الدينية ليلا و نهارا ، ما استطاعوا أن يسعوا لدنياهم ، و فى هذه الصورة إذا لم تقم الحكومة بالانفاق عليهم ، فلا بد أن يؤدى ذلك الى أمرين اثنين، إما أن يدفعهم هـذا الوضع الى فساد

الاخلاق و التكفف للناس، أو إنهم سيضطرون الى ترك هذه الخدمة، و يندفعون كسائر الناس نحو الدنيا، مع أن الله عز و جل قد أوصى في القرآن بصورة واضحة : و لتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر .

فالمراد بذى القربى هم القائمون بخدمة الدين ، و الاسلام يأمر بأن أموال الحكومة كما يجب أن تنفق على الفقراء ، كذلك ينبغى أن تبذل لأجل هؤلاء العاملين ، و لقد نبه الله الأغنياء في آخر آية الانفاق قائلا : و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا، بأن لا تحاولوا استرداد ما أخذ منكم، لأن معيشتكم طبق أحكام الله خير لكم .

تهيئة الحكومة الاسلامية الغذاء و الكساء لكل شخص

و لقد طبقت الحكومة الاسلامية هذه الأحكام بحيث أنها إذا ملكت الأموال ، هيأت لكل شخص الغذاء و الكساء ، كما نرى أن النظام الاسلامى لما اكتمل في عهد عمر رضى الله عنه كان على الحكومة عندئذ أن تهيء الغذاء و الكساء لكل إنسان أيا كان حسب التعاليم الاسلامية ، و كانت الحكومة تؤدى واجبها هذا بكل اهتمام . و إن عمر رضي الله عنه كان قد اتخذ لذلك طريق الاحصاء العام ، و سجل السجلات التي كانت تدون فيها أسامى الناس أجمعين، و كبار مؤرخى أوربا ليعترفون بأن أول إحصاء عام في العالم تم في عهد عمر رضي الله عنه و هو أول من أجرى طريق السجلات ، و ذلك الاحصاء إنما كان يهدف الى تزويد الناس بالغذاء و الكساء ، و كان من واجب الحكومة أن تكون على علم بعدد أفراد الرعية، و يقال اليوم أن روسيا السوفياتية تقوم باطعام الفقراء و كسوتهم، مع أن الاسلام هو الذى أسس أول نظام اقتصادى من هذا النوع ، و تحقق ذلك فعلا في عهد عمر رضي الله عنه، إذ كانت تدون أسماء

أهل كل قرية وكل بلدة و كل مدينة فى السجلات ، و كان يسجل اسم زوج الرجل و أسماء أولاده و عددهم و كان يهيأ لكل شخص مقدار محدد من الغذاء ، لكى يقتات به مقل الاكل و مكثره . و قد ورد في التواريخ أن عمر رضي الله عنه في بداية الأمر لم يراع فى أحكامه الصغار المرتضعين (الرضعاء) و كان قوتهم تجرى بعد الفطام، و ذات ليلة كان عمر على جولة يتفقد أحوال الرعية ، فسمع بكاء طفل لم يكف عن البكاء ، و كانت الأم تداعبه لكي ينام ، و لما طال بكاء الطفل ، دخل عمر الخيمة و قال للمرأة : لماذا لا ترضعينه و هو يبكى منذ طويل ، تلك المرأة ما عرفت شخصية السائل ، فظنت أنه رجل من عامة الناس ، فقالت : ألا تعرف أن عمر قد قرر بحرمان الرضيع من بيت المال، و الآن إن أصر على البكاء ، فليبك عمر الذى حكم عليه بالحرمان، فعاد عمر توا ، و كان يخاطب نفسه و هو في طريقه الى بيت المال و يقول : عمر، ما يدريك كم أطفال من العرب جعلتهم يفطمون ، و بذا دفعت الجيل المقبل الى الضعف ، إن ضعفهم و تدهورهم على عاتقك ، فدخل المخزن مستغرقا في هذه الهواجس ، و حمل كيسا من الدقيق ، فرآه أحد من المسلمين و ألح عليه أن لا يفعل و استعد لحمل الكيس، لكن عمر رضي الله عنه قال كلا، أنا المخطئ فعلي أن أحمل خطيئتى، فحمل الكيس الى تلك المرأة ، و أصدر في اليوم التالى أمرا بأن الرضيع يستحق القوت منذ ولادته ، لأن أمه ترضع فهي بحاجة الى غذاء أوفر .

وصية القرآن بسد حاجة كل بشر من الانسانية

فالآن انظروا أن الاسلام قد أسس هذا النظام في أول أيام بدايته ، بل يتبين من القرآن أن بداية هذا النظام لم تكن في عهد عمر رضي الله عنه ، بل هي تمت في عهد آدم عليه السلام،

كما نرى أن أول وحي نزل على آدم عليه السلام يتضمن هـذه الوصية ، بأننا نسكنكم جنة قدرنا لكم فيها : إن لك ألا تجوع فيها و لا تعرى، و أنك لا تظمؤ فيها و لا تضحي (طـه)، و لقد أخطأ بعض الناس إذ يظنون أن المراد بهذه الآية جنة الآخرة ، و الآية تشير الى أن الانسان حينما يدخل تلك الجنة يراها كما يصفها في هذه الآية، مع أن القرآن يوضح بصراحة أن آدم كان في هذه الارض إذ يقول الله عز و جل : إني جاعل في الأرض خليفة (البقرة)، فالرجل الذى يخلق في الأرض يمكن أن يجوع و يظمـأ و يعرى و يشعر بشدة الشمس أيضا، و من المستحيل أن يخلق في هـذا الكون و يستغنى عن الغذاء و الماء و الكساء و الخباء ، و إذا كانت هـذه الآية متصلة بالدنيا ، فعلينا أن نبحث عن معنى جديد لهذه الآية ، و هو أننـا أوصينا آدم في أول شريعة أنزلناها عليه بأن أحكام هذه الشريعة ستؤديك و أتباعك الى جنة من الحياة ، و تلك الأحكام هي : أن يزود كل فرد بالغذاء و الكسـاء و الخبـاء، ولا ينبغى أن يكون أحد منكم عاريا بل على المجتمع أن يعد لكل واحد اللباس ، و لا ينبغى أن يكون أحد منكم ظامئا بل عـلى المجتمع أن تزوده بالماء بحفر الآبار و المستنقعات ، و لا ينبغى أن يكون أحد منكم في المستقبل بغير بيت، بل على المجتمع أن يبنى له بيتا . هذا أول وحى نزل في هذه الدنيا ، هـذه هي أول مدنية أسسها الله في الدنيا بيد آدم عليه السلام ، و كشف عن حقيقة سامية، و هي أن إلهكم هو إله الجميع، هو إله الأغنياء كما هو إله الفقراء ، إنه إله الضعفاء كما هو إله الاقوياء أيضا ، هو لا يحب أن تتقلب طبقة خاصة في أعطاف النعيم، و تظل طبقة أخرى ترزح تحت أعباء الجوع و العرى .

هذا هو النظام الذى أعاد الاسلام بناءه في عهده، و لا شك في أن الصورة العملية لهذا النظام قـد اندرست اليوم . و لا شك

أيضا أن التطورات الكبرى في هـذا العالم أيضا خاضعة لقانون ارتقائي خاص، و هو أنهـا تبلغ ذروتهـا بعد تيارات عديدة كالمد و الجذر، مرة هي تتأسس و تتثبت في الدنيا، ثم لا تلبث بعد أحقاب أن تزول و تنقرض إزاء التقاليد و العوائـد القديمـة، لكن تبقى ذكرياتها متجددة في أذهان الناس، كبذر جيد يزرع في العالم في حين من الأحيان، ثم يستعيد الانسان العادل ذكره الطيب لجودته و يستعد لأن يعيده الى هذه الدنيا. فهذا النظام الاقتصادى السماوى و إن انقرض مرة، لكن الحركة الأحمدية تريد و تسعى لان تحييه و تؤسسه مرة ثانية، إنها ستمنع اكتناز الثروة المفرطة من ناحية، و تكافح لأجل النهوض بالفقراء من ناحية أخرى، و تقوم بتزويد كل شخص بالغـذاء و الكساء و الخبـاء من ناحيـة ثالثة.

و قصارى القول أن نظام الاقتصاد الاسلامى مبنى على:

١ ـ المواعظ ضد كنز الثروة.
٢ ـ تحريم الدواعى و الحوافز للاثراء المفرط.
٣ ـ التوزيع العاجل للثروة المكنوزة أو تقليلها.
٤ ـ إنفاق الحكومـة عـلى سد حاجات الفقراء و الضعفـاء المحرومين.

و هذا هو النظام الحق الشامل لأنه:

١ ـ يتيح الفرصة للتزود من هذه الدنيا للاخرة.
٢ ـ و به يعتاد الانسان معيشة سهلة بسيطة نافعة.
٣ ـ لا إكراه فيه و لا إجبار.
٤ ـ لم تكبت فيه المواهب و الكفاءات الفردية.
٥ ـ مع ذلك أتيح فيه الفرص و الوسائل لاستراحة الفقراء و الضعفاء و تقدمهم.
٦ ـ ثم إنه لا يثير الضغائن و الأحقاد.

الشيــوعيــة

إن النظام الشيوعى يعرض كأكبر ند لهذا النظام الاسلامى، و يبدى لــه حماس زائـد، فلذلك أريـد أن أتنـاولـــه الآن ببعض الملاحظات .

الشيوعية تدعى بالمبادئ التالية :

١ - استخدام كل واحد حسب قوته و استعداده .

٢ - تهيئة النفقات لكل واحد حسب ضرورته .

٣ - الأموال المتوفرة عن نفقـات العمال يجب أن تسـلم الى الحكومة كوكيلة عن الرعية .

و أساس نظرياتهم على أن أفراد الانسانيـة يجب أن يكونوا متساوين ، لأن كل إنسان يعمل ، فهو مساو مع آخر في استحقاق الأجر ، و لا يستحق أحـــد أن يملك ثروة أكثر من حاجته، و إذا كان عنـده مال متوفر وجب أن يؤخـذ منـه الزائد . هـــذه هي النظرية الاقتصاديـة للشيوعية ، و لهذه النظرية بيئة سياسية ، غير أن مقالى اليوم ليس بسياسي ، بل هو اقتصادي ، لذلك لا أستطيع أن أتناولها الآن .

أما من ناحية الهدف و الغايـــة ، فانه من الصحة بمكان أن يزود كل إنسان بالغـذاء و الكسـاء و الخبـاء و الدواء ، و بوسائل التعليم، أى لا بـد من سد الضرورات الحيويـة الأساسيـــة لكل بنى الانسان، لا يبقى أى انسان جائعا عطشا أو عاريا ، و كذلك لا يجوز أن يظـل أحـــد محروما من البيت أو مبعـدا عن وسـائل التعليم

أو معزولا عن وسائل الصحة و الدواء إذا كان مريضا . أما من ناحية الدعاية و الهدف فان الاسلام يوافق هذه النظرية كل الموافقة، و هو يؤيد هذا النوع من النظام الاقتصادى كل التأييد ، و إن الحكومة الناجحة الصحيحة عند الاسلام هي التى تقول بتزويد كل شخص بالمطعم و الملبس و المسكن و المدرسة و المداواة ، فالاسلام يوافق الشيوعية الى هذا المدى المحدود كل الموافقة ، و إن كان الفرق بينهما من ناحية إقرار الاسلام للحرية الفردية و إظهار المواهب و الكفاءات في الكفاح الشخصى واضحا جدا، إذ الشيوعية تسد هذه الأبواب كلها سدا منيعا .

فارق هام بين الاسلام و الشيوعية

و الحق أن الحرية الفردية لتلعب دورا هاما في تنمية المواهب الانسانية من ناحية ، كما أن الحياة الاخروية السامية لتتوقف على الحرية الفردية في نظام الاقتصاد ، لكن الشيوعية تسد طريق الكفاح الفردى و تجتث جذور الحرية الشخصية ، الأمر الذى يعد وصمة كبرى على وجهها . هذا هو الفارق الذي يوجد بين الشيوعية و الاسلام ، غير انه لا يختلف عنها في الهدف ، و لا شك أن البرنامج الاقتصادى الذي وضعته روسيا بتطبيق هذه النظرية ، قد نجحت فيه نجاحا ملحوظا . و إن الوضع الاقتصادي لعامة سكانها ــ أو بلفظ آخر ــ سكان قسمها الاوربى (و إن لم يوافقنا الشيوعيون على ذلك) صار أحسن من ذى قبل ، و لا بد أن نعترف أن الفقراء هناك ظفروا بالغذاء و الكساء و الخباء و الدواء كما زودوا بالمدارس للتعليم ، فمن حيث هذه الغاية المنشودة للحزب الشيوعي ، فان روح الاقتصاد الاسلامي لتطمئن

بها كل الطمانينــة، لكن الاسلام كما سبق أن ذكرنا ، لا يمكن أن يوافق الشيوعية في بعض الوسائل و الأهداف .

بعض المآخذ على الشيوعية من الوجهة الدينية

بمـا أنني اليوم أمثل الاسلام بحق ، فلذلك أناقش أولا تلك النواحي من النظـام الاقتصادي الشيوعي التي تصطدم المبـادئ الدينية في الصميم . إن أول اعتراض على الشيوعية ينبغي أن يختلج به قلبي و قلب كل موقن بالآخرة ، أنهـا تفرط في تحـديد نطاق الكفاح الشخصي الطـوعي الـذي يؤثر في شتى نواحي الحيـاة تأثيرا بالغا ، و يجعل الانسان مستحقـا لثواب الآخرة ، فبدلا من أن يعطى الفرد حريـة إنفـاق الأموال التي تبقى عنـده بعد دفع الحصة الحكوميـة حيث يصرفها كيف شاء ، لم يترك عنـده من الأموال شيئ سوى القوت و الكساء ، حتي يتمكن من الكفاح لأجل آخرته ، و إنه يستطيع أن يأكل ، إنه يقدر على أن يلبس، و إنـه يستحق أن يملك بيتا ، و يمكنـه أن يتداوى ، و لا تهمـه الدراسة و لا التعليم لأن الحكومة هيـأت له كل ذلك ، لكنـه محروم كل الحرمان مما يتزود به للاخرة ، كأن حياتـه الفانيـة من أربعين أو خمسين سنة هي أهم من حياته الأخروية الأبدية التي أهملت في هـذا النظام كل الاهمال ، الأمر الذى لا يمكن أن يصبر عليه رجل يؤمن بالدين حقا ويرى التمسك بأحكامـه موجبا لنجاتـه .
و الاسلام هو الدين الوحيـد الذي يأمر أتبـاعـه : أن قوموا و اخرجوا لأجل تبليغ دعوة الاسلام الى العـالم كافـة ، قوموا و أدخلوا الناس في دينكم ـ لأن نجاة الدنيا منوطـة بالاسلام ، و الرجل الذي يبتعد عن الاسلام ، سيكون شقيا محروما، سوف يكون في الآخرة مسؤلا عند الله كمجرم . يمكنكم أن تتهموا المسلم

لأجل هــذه العقيدة بالجنون أو الحمق أو الجهـل، على كل حال إنه ما دام متيقنا بصدق الاسلام و ما دام مؤمنا بأن نجاة الانسانية جمعاء متوقفـة على الاسلام ، فلا بد أن يرى من أهم واجباتـه أن يبلغ رسالة الاسلام الى من هو محروم منه ، و يدعوه اليه و يكشف له عن حقائق الاسلام كشفا رائعا يستجلبه الى هذا الدين الحنيف ، فاذا كان هو ناصحا للانسانيــة كلها . و إذا كان متمنيا خيرهم و حسن عاقبتهم ، فكـيف يمكن إذاً أن يضن عليهم بالرسالــة التي يعتقدها لازمة لحياة الانسان الأبدية ، فاذا لم يرض لصديقه أن ينهار في هوة ، و إذا لم يحتمل أن يقتله العدو بنيران الرصاص ، فكيف يمكن إذاً أن يرضى بدخوله النار في حياة الآخرة الأبدية ، و يحب حرمانه من جنــة الله الخالدة ، و بعده من قرب الله و مرضاتـه ؟ قولوا أنتم ما شئتم لكن مع ذلك إن الانسان المرتبط بالدين سيتمنى أشد التمنى أن يقدم باصلاح موقف أخيه الاعتقادى و العمل . لكن النظام الشيوعى لا يتسع لذلك مطلقا ، و إنه يمنع مثل هذا الكفاح الشخصى أولا بطرق سياسية ، كما تشهد على ذلك تجربتنـا أيضا . إننى أرسلت مبشرا أحمديا الى روسيــا ، لكنـه بدلا من أن يؤذن بأداء واجبــه هو اعتقل و ألقى في السجن ، و كان يربط على ألواح حديدية ربطا و ثيقا قاسيا ، و كان يجوع يعطش أياما، و كان يرغم على أكل لحم الخنزير ، و ظل عرضة لهذا التعذيب و القسوة الوحشية مدة طويلة (و خلال هذه الكلمات إن حضرة الامام أمر الاستاذ ظهور حسين بالقيام ، و قال) هـذا هو السيد الذي أرسل الى روسيا كمبشر و ظل في أعمق سجون تاشقند و عشق آباد و موسكو سنتين إلا شهرين و ضربوه ضربا مبرحا و هو مقيـد على ألواح حديديــة ، و أرغموه على أكل الخنزير مرة بعد أخرى ، حتى أدي هذا التعذيب القاسي الى اختلال عقله ، عندئذ

هم ألقوه على حدود إيران فأخبر السفير البريطانى بايران الحكومة الهندية بهذا الحادث ، فأرسلت الحكومة إلي برقيــة بأن حكومة روسيا دفعت أحـدا من مبشريكم الى حـدود إيران ، فكتبت الى الحكومة بأن تقوم بارساله هنا على حساب الجماعة، فأبلغته الحكومة الينا ، فهذا هو مبشرنا الذى كان هدفا لأشد التعذيب سنة و عشرة أشهر ، و لم يؤذن له و لا بأى شرط ، أن يقوم بالدعوة الدينية في روسيا .

فانهم أولا يمنعون الدعوة و التبليغ من الناحيـة السياسية ، لكن هذا المقال اقتصادى فلـذلك أصرف النظر عن السياسة . و الآن نتساءل فقط عن أنه كم من تضحيات مالية تحتاج اليها الأقلية في إعداد الكتب لأجل تحويل الأكثرية عن دينها ؟ كما نرى أن جماعتنا أقلية ، لكنها تريد أن تنشر الاسلام في أقطار الدنيا كلها . و إذا أعددنا مشروعا لارسال المبشرين الى روسيا مثلاً ، كان من السهـل لكل شخص أن يقـدر ما نحتاج اليه من الكتب و الأموال في الكفاح لأجل إدخال مائة وسبعين مليون روسى في الاسلام، إن جماعتنــا إنما تستطيع أن تواصل كفـاحها إذا لم ترغم على تقديم جميع أموالها للحكومة ، بل تتاح لها الحرية للتصرف في بعض أموالها ، علاوة على نفقات الغذاء و الكساء و الخباء ، لتقوم بالنفقات التي تراها لازمة لخيرها الأخروى . لكن النظام الاقتصادي الشيوعى لا يقر بالملكية الشخصية بتاتا ، لأنه لا يعد هذا الكفاح الديني عملا أو خدمة ، إنما العمل عنده هو العمل المادي فقط، لكن الخدمات الدينية خارجــة عنده عن نطاق العمل ، إن إدارة آلة او جهاز عمل عنده ، كذلك الحراثــة في الأرض و الصناعة في المصنع يعدان عنده من الأعمال ، لكنه يري أن إعلاء كلمة

الله و نشر دينه ليسا من العمل في شيء ، لانه لا يعتقد بالوحي و لا يؤمن بشريعة سماوية ، بل هو يكفر بالدين و يظن أن أصحاب الدين هؤلاء من المجانين الذين يضيعون وقتهم هدرا ، فلذلك لا يمكن أن تكون الحكومة الشيوعية مسؤلة عن طعام هؤلاء المبشرين و لباسهم و مسكنهم ، و إنما تكون مسئولة عنهم إذا قاموا بعمل مادى ، و تبرؤوا عن الأعمال الدينية و الروحانية . فالاسلام لا يستطيع أن يبدأ أعماله الدينية في ظل حكومة شيوعية فضلا عن مواصلتها و الاستمرار عليها . إن رجلا مسلما و إن ظل خاوي البطن ليرى أن نجاحه منوط بنجاحه في حياة الآخرة ، و يتيقن أن أخاه و إن ملك ملء الأرض ذهبا ، خائب إذا لم يفز بحياة الآخرة و بمرضاة ربه و هداه .

فالرجل الذي يتمسك بهذه العقيدة تلجئه عاطفة النصيحة الى أن يسعى لاتاحة وسائل الهداية لأخيه الضال ، لكن الشيوعية تنتزع منه جميع أمواله على أنها تدافع عن الوطن ، و لكنها تقتل روحه . أما ما يتصل بتهيئة المطعم و الملبس و المدرسة لكل الناس ، فكنا متفقين معهم على ذلك ، و كنا نري أن فرض الضرائب بقدر ما يسد هذه الضرورات الحيوية لكل فرد في الدنيا لا بد منه ، لكن الشيوعية تضيف الى ذلك أمرا آخر و هو تسليم جميع ما يتوفر عن هذه الضرورات الى الحكومة و أن لا تساهموا في نشر دينكم . فكأننا وافقنا الشيوعيين في أمر يأمر به ديننا أيضا ، لكنهم بدلا من أن يقدروا هذه الناحية من الدين و يأذنوا بنشره قالوا إننا لن نعطيكم الحرية لنشر رسالة الله و نبيه ، و ليس الذين يقومون بخدمة دينية إلا عبأ على الحكومة . لو قال الشيوعيون إنهم أعداء الدين و يعدونه شيئا تافها لخالفناهم أيضا و لما تأسفنا على مسلكهم ، و ظننا أنهم يبدون بلسانهم ما يختلج في نفوسهم ، لكننا نتأسف

على أن الشيوعيين لا يكشفون عما في قلوبهم ، و لا يصرحون بأنهم لن يعطوا الحرية لنشر الدين في حكومتهم ، لكنهم يحاولون أن يقتحموا البيوت من ظهورها ، و أكثر الشبان من أتباع الدين لا يطلعون على حيلهم إلا بعد أن فقدوا شخصياتهم في التيار الشديد من ولوعهم بالشيوعية و صبوتهم اليها و تعصبهم لها . لو أعلن الشيوعيون بأنهم لا يقيمون أي وزن لحياة الآخرة و لا يسمحون أحدا أن يملك ما ينفق في سبيل هذه العقيدة ، لقبل الناس الشيوعية متحذرين ، لكن الشيوعيين على عكس ذلك يحاولون أن يكتموا هذه الناحية من نظامهم في البلاد الأخري ، و يزعمون أن الشيوعية إنما هي نظام اقتصادى و لا يعارض الدين من أية ناحية ، مع أن الدين عبارة عن الدعوة الى الحق ، و المراد به إنما هو تبليغ أحكام الله الى الناس باللسان كان ذلك أو بالقلم ، بالنشرات كان أو بالكتب ، لكن الشيوعية لا تبقى من أموال إنسان باقية ، فكيف يمكن لرجل متدين إذاً أن يطبع النشرات أو الكتب و يبلغها الى جميع نواحي البلاد ؟ هذا الخطر الشيوعى لا بد أن يؤدى الى ركود حركة الدعوة الدينية و سيادة الالحاد في العالم .

عرقلة النظام الشيوعى للوقف على خدمة الدين

و الآن أتناول الوجهة الثانية من هذا السؤال . كل مسلم يقول إني لا أريد المال ، لكنني أقف حياتي على خدمة الاسلام ، أيضا يقول بأني ساتجول في طول روسيا و عرضها ، و أبلغ رسالتي اليهم ، إنني سأذهب الى كل قرية ، و أزور كل بلدة ، و أدخل كل مدينة ، و سأسعى لادخال الناس في الاسلام . فنتسائل الآن الحكومة الشيوعية ، هل هي مستعدة لأن تعطي المسلم حرية وقف الحياة ، و نشر دعوة الاسلام في بلادها ، أم يكرهنه على

الامتناع عن ذلك ، أم يزجه الى أعماق السجون المظلمة ؟ و لا شك أن رد الشيوعية على ذلك ليس إلا أنها ترغمه على الامتناع عن هذا العمل ، و لن تسمح له بالقيام بخدمة الدين ، و تدفعه الى غيابة السجن ، و تقول له : إما أن تعمل عملا آخر ، و إلا تحرم من المطعم وغيره من الضرورات . فكأن وقف حياتي في سبيل الله ، و وقف أوقاتي لأجل دراسة القرآن و دراسة الحديث ، الذي بغيره لا يمكن حسب عقيدتي أن يتم فلاح حياتي الأخروية ، كل ذلك بطالة و عطل و إضاعة الوقت عند الشيوعية ليس إلا . إن الحكومة الشيوعية ستقول للواقف حياته على نشر دعوة الاسلام ، إنك إن اجترأت على ذلك فمصيرك السجن أو الحرمان من الطعام و غيره من الضرورات الحيوية ، مع أن القرآن يقيم لهذه الطائفة من الواقفين أهمية كبري من وجهة نظر المصالح القومية ، و المؤمنون بالدين كلهم يقرون بضرورة تخصيص طائفة منهم لأجل الخدمة الدينية ، و لقد قال الله عز و جل في القرآن الحكيم :

و لتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف
و ينهون عن المنكر (آل عمران) .

أى يأيها المسلمون ينبغي أن تكون منكم جماعة مفرغة عن الأعمال الدنيوية مخصوصة للمحاسبة الدينية، و من أهم واجباتها دعوة الناس الى الصالحات و تزويدهم بعلم الخيرات و نهيهم عن المنكرات . فمن ناحية التعاليم الاسلامية لا بد من أن يكون قسم من الامة واقفا على تحقيق هذا الهدف بصورة خاصة . و الحق أن الاسلام لا يميز هذه الطائفة بحقوق غير عادية ، غير أن الاسلام لا يعترف بالكهانة الكنيسية كالمسيحية ، و لكنه يقول بتنظيم دينى خاص،

و المسيحية تخصص لدعاتها و مبشريها حقوقا و امتيازات غير عادية، بينما الاسلام يقول إن هؤلاء الواقفين على خدمة الدين لا يستحقون أى حق غير أن لهم واجبات خاصة بنشر دعوة الاسلام و عليهم أن يجعلوا خدمة الدين من الناحيتين التعليمية و التربوية نصب أعينهم ، و بقاء الاسلام مستحيل بدون هؤلاء الواقفين ، و لا يمكن تطبيق دستور شامل كالاسلام بغير الخبراء البارعين فيه و الدعاة النابغين اليه . و الاسلام دين هو أكمل من سائر الأديان، و هو يتضمن أشمل دستور و أوسعه ، إن تعاليمه تتصل بالعبادات ، كما هي ترتبط بالاقتصاديات و تتعلق بالشؤون السياسية أيضا ، إنه يعين حقوق العمال و صاحب العمل و المتعلم ، و يشرح حقوق الزوج و الزوجة ، و يعطى تعليمات وافية عن الشؤون التجارية و المعاملات المالية الأخرى ، و يرشد في قضايا الميراث ، و يعين أحكاما واضحة في القضايا الدولية ، و يحدد مبادئ القضاء الاسلامي . و زبدة القول أن الاسلام يحوى ألوف الشرائع التي كل واحد منها يحتاج الى توجيه شامل حكيم من قبل المعلمين البارعين الذين ينبغي أن يشتغلوا في تحليل هذه التعاليم ليلا و نهارا ، و ما لم يوجد مثل هؤلاء المعلمين في الاسلام ، فماذا يتعلم الناس و ممن يتعلمون ؟ و كيف يمكن أن يعمل المسلمون بدينهم ؟ و كيف ينتشر الاسلام في جميع أصقاع العالم .

إن علم التفسير علم مستقل ، و لا يمكن أن يدوم هذا العلم ما لم يوجد المفسرون ، و لكى يكون الرجل مفسرا لا بد من دراسة التفاسير سنين متوالية ، كما يلزمه أن يطالع اللغة و الصرف و النحو أيضا و كذلك هو بحاجة ماسة الى دراسة الأحاديث النبوية ، و كتب التفسير القديمة و أيضا لا بد له من دراسة كتب سائر الأديان و تاريخها ، و بخاصة لا بد أن يستوعب تاريخ

العرب و تاريخ بني إسرائيل و يطالع التوراة و الانجيل ، و لا يمكن لأحد أن يدرك معارف القرآن و دقائقه بصورة صحيحة بغير أن يلم بهذه الأمور كلها إلا إذا شرف الله أحدا بافهامه إياه من عنده، و أمثاله أندر ما يكون في العالم و قد تمضي الدهور قبل أن يظهر مثيله ، أما سائر الناس فلا يمكنهم أن ينالوا هذه المكانة إلا بالاكتساب المقرون بالتقوى ، أما الشيوعيون فلا يعدون هذه العمل عملا ، و من المستحيل أن يتيحوا لأحد فرصة اثني عشر عاما لدراسة القرآن الحكيم و تفسيره و إتقان اللغة العربية و تدريسها ، إنهم إما يسجنوه أو يحرموه من الطعام و الشراب ، لانه عندهم بطال و عبء على الشعب .

كذلك علم الحديث ، فانه علاوة على عشرات الكتب يحتوى على عشرات الشروح و كتب اللغة و الصرف و النحو و كتب أسماء الرجال ، و بدونه لا يمكن للمسلمين أن يدركوا تفاصيل دينهم، لايمكن أن يعرفوها بغير المعلمين البارعين الذين يقضون أعمارهم في إتقان هذا العلم ، لكن الشيوعية ترى مجرد دراسة هذا العلم لغوا و عبثا و عملا عقيما ، فلن تسمح بقضاء الأعمار في تحصيله و مصير مثل هذا الشخص عندها ليس إلا السجن أو الجوع القاتل ، لأنه عندها وجود باطل و عبء فادح على الشعب . لكن المسلمين لا يمكن أن يقفوا على حقائق دينهم بغير هؤلاء الخبراء ، و كذلك سائر العلوم الاسلامية من الفقه و القضاء و تاريخ الاسلام و التصوف و التمدن الاسلامى و الاقتصاد الاسلامى ، كل هذه العلوم هي المصادر التي لا يمكن بغيرها المحافظة على كيان الأمة الاسلامية ، لكن الشيوعية لا تسمح لمعلمى هذه العلوم و لا متعلميها أن يقيموا في بلادها ، لأنها لا تتيح لهم وسائل المعيشة ، إذ أنهم متعطلون عندها ، و جماهير المسلمين

في روسيا لا يمكنهم أن يملكوا وسائل ماليـة متوفره حتى يساعدوا هؤلاء المعلمين ، كما يعمل مسلموا الهند و الصين و البلاد العربية (و الآن باكستـان أيضـا ـ المعرب) ، و الحق أن الاسلام و سائر الأديان مختلفة عن الشيوعية في ماهية العمل أشد الاختلاف.

اختلاف الاسلام و الشيوعية فى شرح العمل

و عندنا الشخص الذي يدير آلـة او جهازا هو عامل ، و كـذلك إن الـذي يعلم الـدين أو يتعلمـه هو عامل أيضـا ، لكن عندهم (الشيوعيين) إنما العامل هو الذي يدير آلة ، أما الـذي يعلـم الـدين أو يتعلمـه أو ينشـره فهو ليس من العمل في شي ، إنمـا هو بطال ليس إلا ، إن تعلـيم الألف و الباء عمل عندهم ، لكن تعليم ''لا اله إلا الله محمد رسول الله'' ليس بعمل ، بل هو عبث . فاننـا و إن نوافقهم لفظـا في أن العـامل هو وحده يستحق وسائل الحيـاة ، لكننا نخـالفهم أشـد المخالفـة في أن العمل ليس إلا ما يصدق الشيوعي بعمليتـه ، إن العمل لأجل الآخرة ليس بعمل عند الشيوعي بل هو إضاعة الوقت ، و أيضا معلم القرآن يضيع وقته في رأى الشيوعي و كذلك مدرسو الحديث و الفقـه و أصول الفقـه و التفسير و التصوف و معلمو الاخلاق ، كل أولئك يضيعون الوقت عند الشيوعي . إن هذه العلوم لأعز على المسلم من نفسه ، و يجب أن يكون هناك ألوف من الناس يعملون على إحيائها و نشرها ، و يجب أن يكون خمسون ألف معلم و مثله من المتعلمين الذين يسدون فراغهم في روسيا فقط ، حيث يبلغ المسلمون ثلاثين مليونا ، لكن النظام الشيوعي يعد معلمى القرآن و الحديث و التفسير و التصوف و الفقه و أصول الفـقه و مدرسى الأخلاق كلهم ديدانا

تمتص دماء الشعب ، و هؤلاء عندهم بطالون أعباء على الشعب ، و يجب أن يقضى عليهم في أقرب فرصة .

و الآن انظروا ما أبعد الفرق بين نظريتنا و نظريتهم ، و من المستحيل أن يملأ هذا البون الشاسع كبون الشرق و الغرب ، لا شك في أن بعض الناس سزورون و يدعون بخدمة الدين، و لكنهم لا يطبقونه بأعمالهم، لكن لا مراء في أن الذي يخدم الدين خدمة حقيقية و يفدى الدين بحياته ، فأننا نعترف بسيادته علينا ، و نعتبره روحا لحياتنا القومية و نعده من أعظم المحسنين الينا . لكن الشيوعيين يرون هؤلاء الناس أذل وجود في الأرض ، و يعدونهم من البطالين و الخونة ضد الشعب ، و هؤلاء الناس لا يستحقون عندهم إلا السجن المؤبد أو النفي .

مكان الانبياء عليهم السلام فى النظام الشيوعى

إن الشخص العظيم الذي لا نقيم بازائه لأعظم الملوك و جبابرة السلاطين أي وزن و لا نراه حتى كقلامة أظفاره ، و الذي يرى كل واحد منا فداء النفس لأجله أعظم سعادة و أجل حظ ، أعني حضرة محمد المصطفى صلى الله عليه و سلم ، الذي كان يقضي ليله و نهاره في تلاوة كلام الله على الناس ليخرج أرواحهم من الظلمات الى النور ، كذلك المسيح الناصرى و موسى و إبراهيم و "كرشن" ، و رام شندر و بوذا و زرتشت و نانك و كنفيوشاس عليهم السلام جميعا . و حسب النظام الشيوعى كل هؤلاء كانوا بطالين أعباء على شعوبهم ، و كان يجب طبق قانونه أن يرسلوا كلهم إما الى المصانع ، فيؤمروا هنالك بصنع الأحذية و النعال أو خياطة الملابس ، أو يفرض عليهم تحليق رؤوس العمال ، فان لم يستعدوا لذلك فمصيرهم الجوع و الحرمان ، لأنهم أنكاد و

أعباء على الشعب . إن فن الرسم عمل عند الشيوعيين ، و نحت التماثيل أيضا عمل ، لكن إصلاح الروح عندهم ليس بعمل، بل يرونه بطالة و عطلا ، مع أننا على علم بأن الطعام وحده لا يملأ بطن الانسان ، و لا الغذاء يؤدى الى طمانينته ، بل هناك ألوف مؤلفة من الناس الذين لا يستريحون بغير العبادة ، و إن عني بغذائهم و لباسهم أيما عناية .

أغرب نظرية للشيوعية في شرح العمل

مما يدعو الى الاستغراب أن النظام الشيوعى يعد الأجير الذي يعمل في المصنع ست ساعات ثم يذهب الى المراقص و الملاهي ، و هو سكير عاملا ، و كذلك هذا النظام يعتبر التصوير و الموسيقى من الأعمال ، لكنه لا يرى إصلاح الروح و الأخلاق من العمل في شيء . و قد حصل فيما سبق من الأيام ، أن سئل مارشال "مالى نوسكى" (Moli Novsky) عن هواية أبنائه، فقال مبتسما : "إنهم مشغوفون بالتصوير و الموسيقى و تربية الأرانب" . فكأن النظام الشيوعى يعد صبيا متدللا يقتل أوقاته في هواية التصوير و يستغرق ليله و نهاره في الموسيقى ، و يداعب الأرانب و يتفقدها ، عاملا يستحق كل وسائل المعيشة ، لكن محمدا صلى الله عليه و سلم ، و المسيح الناصرى و موسى و كرشن و بوذا و زردشت ، و نانك عليهم السلام جميعا ، هؤلاء العظماء إن بلغوا رسالة الله الى الناس ، فيزعم الشيوعيون الجهلة ، أن هؤلاء هم الجراثيم الفتاكة للمجتمع و لا يستأهلون أن يسموا بالعمال ، مع أن هؤلاء العظماء الروحانيين ، هم قاموا بواجبهم ليلا و نهارا ، و لم يفكروا في نهار الأعمال الدنيوية ، و لم يهتموا بليل الاستراحة ، حرموا على أنفسهم التنعم و الترف ، و عملوا ثماني

عشرة ساعة يوميا لاصلاح الانسانية جمعاء من النواحي العلمية و الأخلاقية و الروحانية، و كانت جنوبهم تتجافي عن المضاجع في الليل متعبدين ، أجل هؤلاء الأجلاء لم يكونوا عند الشيوعية من العمال ، لكن رواد السينما ليلا و نهارا هم عندها من العمال المحترمين ، و إن الذين كانوا ينصرون المظلومين و كانوا يعملون على تقويم الاخلاق و تثقيفها ، و كانوا يقاسون الشدائد في سبيل نشر الحسنات و محو السيئات ، هؤلاء المصلحون كانوا بطالين ، لكن زملاء الشيوعيين الذين يسهرون الليالى في السينمايات و يرقصون و هم يحتسون الخمر ، و الذين يصفرون بآلات الموسيقى كل أولئك عاملون .

مثار الغيرة لمسلم حقيقي

و قصارى القول أن الحقائق لتشهد على أن النظام الشيوعي لا يتسع لهؤلاء الأجلاء محلا ، إنني لا أدرى مشاعر المسلمين ، لكنني أنا أرى و أتيقن بأن النظام الذي لا يتسع لسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم مقاما ، فو الله إنني لن أرضى به مقاما أيضا ، إننا لن نتخذ أي بلد وطنا و لن نتمسك بنظام أيا كان ، إلا إذا فتح أبوابه أولا لهؤلاء الأجلاء ، و إذا كان ذلك البلد مسدودا لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم كان مسدودا لكل مسلم حقيقي . إن الشيوعيين يمكنهم ، و هم يكتمون الحق ، أن يستميلوا بعض المعتقدين بالأديان الى نظامهم ، لكنهم لا يستطيعون ذلك إذا أماطوا لثامهم، إنهم يزعمون أنهم لايخالفون أي دين ، لكن كما سبق أن ذكرت إنهم لكاذبون ، إنهم لا يخالفون الدين لفظا لكنهم يخالفونه عملا ، و إذا كانت الحقائق تشهد على أنهم لا يعترفون للدين بأية مكانة ، فقولهم بعدم التدخل في الدين كذب و مين ليس إلا .

اتخاذ الوسائل المختلفة لحظر التعليم الديني

و ما ينبغي أن نذكر هنا بهذا الصدد ، أن الحكومة الروسية تتعمد عرقلـة للتعليم الديني ، و يقال من قبلها أن الأبوين لا يستحقان أبدا أن يعلما الصغار الدين ، و يلقيا في مسامعهم المبادئ الدينية التي تدفعهم نحو الدين ، و يزعمون أن من الظلم المبين أن المسلم يوجه طفله الى الاسلام منذ ولادته ، و أن المسيحي يستميل طفله الى المسيحية ، و الهندوكي يلقنه بالهندوكية ، إن الطريق الصحيح هو أن يترك الطفل حرا الى بلوغته و لا يلقى اليه شيئ من الدين ، و لا نلقنه أيضا بشيئ من الشيوعية من ناحية أخرى ، و عندما يكبر سيقرر مصيره بنفسه . و هذا الطريق يبدو عادلا بظاهره لكنه في الحقيقه مدعاة لأشد الظلم و الجور ، لأن الاسلام و المسيحية و الهندوكية كلها أديان إيجابية ، و إنها تدعي بأن الامور الفلانية توجد فيها ، لكن الملحدين يزعمون بسلب كل الأمور الدينية ، و من المعلوم أن صاحب الطريق الايجابي هو الذي يحتاج الى التعليم ، لكن صاحب السلب لا يحتاج إلا الى عدم التعليم ، فليس هذا بطريق سواء ، بل هو تزوير و تزييف . و حينما يقول الشيوعيون أن لا تعلموا الصغار شيئا ، فمعناه بلفظ آخر أنا نعلمهم الالحاد ، لكن لا نسمح لكم بتعليمهم الدين . و الآن هل من أحد يمكن أن يقر بهذه النظرية المغشوشة ، بل رأيهم هذا إنما هو تحيز بحت ، و ليس ذلك إلا كما يذهب شخص الى أب فيقول له : لا تخبر ابنك بأنك أبوه ، و أنا أيضا لا أخبره بأنك لست أباه ، فالطفل لن يتعلم إلا أن الرجل ليس أباه أو يقول أحد لمعلم المدرسة : لا تخبر الطفل بأن هذا ألف ، و لا أخبره أيضا بأن هذا ليس بألف و هلم جرا عن الباء ، فهل هذا الطريق

يؤدى الى علم الطفل بالالف و الباء أم يدفعه نحو الجهل ؟ أو بلفظ أوضح يقول رجل لآخر : لا تخبر الطفل بأن أمريكا بلد و لا أخبره بأن أمريكا ليست ببلد ، و لا يؤول هذا المنطق الغريب إلا الى جهل الطفل بأمريكا . و جملة القول أن هذه المساومة ليست بمقبولة عند عاقل ، و قد سبق أن ذكرت سببه و هو أن الدين كائن إيجابي و الالحاد هو الزعم بسلب العلم ، فنفى التعليم يحقق غاية الملحد و يدفع معلم الطريق الايجابي نحو الخسران ، فليس ذلك بالتساوى حسب زعمهم بل هو غش . الاسلام هو الدين الذي يقدم للعالم ادعاءه بأن الله علم الانسان ما لم يعلم (العلق) ، اى أننا سنعلم الانسان بهذا القرآن علوما لا عهد له بها من قبل ، فاذا كان ادعاء الاسلام إنما هو تعليم الناس علوما لم يسبق لهم بها علم ، فاذا كنتم أيها الشيوعيون لا تسمحون لأحد بتعلم تلك العلوم ، فكيف أصبحتم بموقف متساو مع مسلم و أنتم تدفعون ذلك الشاب الطائش الجاهل الى العهد الجاهلى ، و تبعدونه عن واجبه الحقيقى ؟ كذلك هنا أسئلة أخرى يمكن أن تثار في هذا الموضع ، غير أننى لست الآن بصدد تلك القضايا العلمية و السياسية و الدينية التى لا تتصل بالنظم الاقتصادية ، فلذلك أصرف عنها النظر .

التساوى الشامل مستحيل

بعد كشف الغطاء عن المفاسد التي تتأتي عن تأثير النظم الاقتصادية الشيوعية في الأديان ، أريد أن أصرح الآن أن هذا النظام المتطرف مرفوض عند العقل أيضا ، و الحق أن التساوى الشامل لا يمكن أن يتحقق و لن يمكن ، لأن المال وحده لا يجلب للانسان المسرة و السعادة ، و لا الطعام فقط هو الذي يملأ بطنه . لكن مع ذلك أيضا نتسائل ، هل كل الناس يأكلون لونا واحدا من

الطعام ؟ و هل كل الناس يتمتعون بالطعام بذوق واحد ؟ و هل ينظرون في الأشياء بنظرة واحدة ؟ و هل الصحة أمر يتساوي فيه جميع الناس ؟ فهل يمكن التساوي في هذه الأمور التي هي أيضا من عوامل الراحة و السعادة للانسان ؟ إن القوى العقلية و المواهب الفكرية تورث الانسان سعادة و أي سعادة ، فهل من حكومة في العالم تقدر على تسوية الناس فيها ؟ إن بقاء ذوي القربى ما أدعي الى سعادة الانسان ، لكن هل يمكن لأحد أن ينال تأمينا لحياتهم ؟ و هل من حكومة تستطيع أن تعلن بتسوية آجال الناس ، و تقول لشخص إن زوجك ستحيى كذا و كذا سنة ، و زوج فلان أيضا ستعيش مثلها ، أو إن إخوة زيد سيعيشون كذا و كذا ، و إخوة بكر أيضا عائشون مثلهم ؟ ثم بقاء الأولاد كم هو موجب للسعادة و الطمانينة ! لكن هل من حكومة تقدر على تسوية جميع الناس في عدد الأولاد أو في مواهب المولودين و كفاءاتهم و أعمارهم أيضا ؟ ثم المآسي بوفاة الأقارب تعكر سعادة الانسان أيما تعكير ، إن الأم الثكلى بوحيدها مهما قدمتم اليها من أشهى الأطعمة و ألذها ، لن تتمتع بهذه الأطعمة ، لكن عكس ذلك إن الأم السعيدة التي تضم وليدها الى صدرها ستتمتع بطعام بائت لذة لا يشعر بها أغني الأغنياء الذي تزخر مائدته باثني عشر أو اربعة عشر لونا من الطعام . إن شدة إرهاف المشاعر الانسانية نحو ذويه يمكن أن نعرف مداها في حادث حصل في تاريخ الشيوعية القديم ، و هو أن الشيوعيين لما انقسموا أولا الى حزبين بولشويك و مانشويك ، عندئذ قال ”مارتوف“ الذي كان زعيما لحزبه كاينن : يجب أن تسجل في دستورنا أيضا أن عقاب الاعدام لن يصدر على أحد ، لأن إعدام النفس الانسانية ليس بصحيح ، و كان يدعم رأيه سائر الناس ، و كانوا يريدون إلغاء عقاب الاعدام ، لكن لينن خالفهم و قال : إن هذا الرأي و إن كان

صحيحا مبدئيا، لكن الآن إذا ألغينا هــذا العقاب في دستورنا فلن يمكن لنا إعدام قيصر روسيا ، و بذلك لا بد من إبقاء هذا القانون و لو لأجل إعــدام قيصر فقط ، و إلا فمن المستحيل إعــدامه . و عـداوة لينن الشديـدة لقيصر التي جعلته يصر على إبقاء عقاب الاعـدام لم تكن إلا لمجرد شنق الحكومـة القيصرية أخاه لبعض جرائمه و كان لينن يحب أخاه هذا حبا شديدا ، فلذا هو أحب بقاء قانون الاعدام لكى يتمكن من أن يثأر لأخيه ، و يثلج صدره بشنق قيصر . و جملة القول أن آلام الأقارب لهي من الشـدة بمكان يتلاشى معه الحرمان من الطعام، فهل من حكومة تقدر على تسويتها بين الناس ؟ و هل من رجل يستطيع أن ينال تأمينا حكوميا لبقاء ذويه ؟ فلا يمكن أن يتمتع الانسان بطمأنينة القلب و راحة الضمير الحقيقة إلا بالاتصال بالله عز و جل ، إن كل هذه الأمور بيد الله ، اجعلوا الناس سواسية في الطعام متماثلين في اللباس ، لكن الـراحة الحقيقية بعيدة عن الانسان كل البعد ما لم يتصل بالله عز و جل ، لأن هناك ألوفا من الأشياء التى قلتها و كثرتها تقلق راحة البال ، و هي بيد الله وحده .

تدخل الشيوعية فى حق الملك

إن روسيا لم تكن في عهد قيصر بلدا صناعيا ، بل كان بلد كبار الملاكين ، و لذلك كانت الشيوعية تباشر نشاطها فى المزارع دون المصانع . إن ما كتبه كارل ماركس عن الرأسمالية فانه بسبب نشأته بألمانيا و دراسته بجامعتها ، و لما اضطلع لينن بفلسفة ماركس ، طبق مبادئـه الموضوعــة عن الرأسمالية على النظام الزراعى، و وضع لذلك مبادئ تالية :

١ - إن الأرض كلها للحكومة .

٢ - و لذلك يجب الاستيلاء على أراضي البلد كلها أولا ثم يلزم توزيعها على طبقــة السكان الذين يزرعونها بأنفسهم .

٣ - يجب أن يعطي الرجل من الأرض قدر ما يستطيع حراثته .

٤ - بما أن الأرض كلها للحكومة ، فلذلك يجب استغلالها استغلالا وفيرا ، و الفلاح يجب أن يخضع لتدخل الحكومة ، لأنه إنما يعمل كممثل لها .

حق الملكية في الاسلام

إن تعاليم الاسلام التي قد سبق أن ذكرنا مبادئها هي في هذه القضية : أن الارض كلها لله لكنه يقر للانسان بحق الملكية المشروع ، و فرض على صاحب الأرض توزيعها على الورثــة (للابن سهم واحد و للبنت نصف السهم و للأبوين ثلث السهم) و لا يخصها بأحد الأبناء ، و إن لم يكن له و لد فأرضه توزع بين الأبوين و الاخوة و الأخوات ، و إن لم يكن له أحد من هؤلاء أيضا فترثها الحكومة التي تنوب عن الله عز و جل ، و لا يجوز تخصيصه لأحد الورثة .

ما أحكم هذا التعليم، (١) أولا لأن باقرار حق الملك لكل واحد سيملك كل واحد نصيبه من الأرض، و سيقوم بحراثتها و زراعتها بأحسن ما يمكن ، لأن معيشته تتوقف عليها ، (٢) إن أولاده سيتقنون فن الزراعة إذا عرفوا أنهم يملكون بهذه الارض و يزرعونها ، (٣) و إذا كانت الأرض المملوكة أكثر نسبيا، فهي أيضا ستقل شيئا فشيئا بتقاسيم الوراثة ، (٤) بما أن الأرض كلها لله عند الاسلام، فلذلك لا يمكن أن يستولى أحد على ملكية واسعة غير مشروعة، و المراد بغير المشروعة هو أن النظم الأخرى سوى الاسلام توزع الاراضي المفتوحــة

على أصحاب الملك او على عظماء الشعب، و حسب هذا النظام إن ملوك "نورمندي"، وزعو بعض مناطق ائرلندا على بعض الأثرياء ، و حرموا منها سائر السكان ، حتي أنهم لم يجدوا أرضا لبناء بيوتهم ، بل إن القوانين القديمة كانت تحرم الناس أيضا من اشتراء الأرض من الأثرياء ، و بعد مدة بدأت مبايعة الأرض عن طريق المقاطعة ذات المدة الطويلة، لكن رغم ذلك، إن البنايات الفخمة الكبرى ظلت في ملك كبار الملاكين الذين يستبقون سيطرتهم على الناس بايجارها ، و حدث في فرنسا و ألمانيا و النمسا مثل ذلك الى حد ما ، و ظلت إيطاليا أيضا تنسج على هذا المنوال أحقابا طويلة ، حتي بدت بعض بوادر الاصلاح بعد حروب نابليون ، و كذلك حدث في الولايات المتحدة الامريكية خلال نهضتها إذ استولى طائفة من كبار الملاكين على أراضي السكان القدماء و احتلوا مهما شاؤوا من مناطق واسعة ، و حصل ذلك في بلاد النمسا ، و كذلك حدث في مستعمرة كينيا ، حيث احتل بعض الانجليز حتي على مائة ألف فدان على حدة ، و حرموا منها السكان القدماء .

الاسوة المثالية للاسلام فى احتلال الاراضى المفتوحة

و إزاء ذلك إن المنتصرين في الغزوات الاسلامية قد أعطوا نصيبا تافهـا من الأراضي المهجورة ، لأنه كان من المتعذر أن يكون أحد منهم من أثرياء الحرب بطرق غير مشروعة ، إذ كانت الأراضي الزراعية في شبه الجزيرة العربية محدودة جدا ، لكن في اليمن و الشام تركت الأراضي بأيدى أصحابها القدماء و كانت أراضي العراق غامرة مهجورة ، و كان الفرس تركوها عند انتصار المسلمين عليهم، و كان موقعها بين النهرين ، فظفر المسلمون هناك بأراضي واسعة ، لكن حضرة عمر رضي الله عنه نهى عن توزيعها

على الجيش مخافة تضرر الأجيال القادمة و عامة المسلمين، رغم أن بعض القواد المسلمين حاولوا توزيعها على الجيش المنتصر حسب عادة الناس في الأراضي المهجورة ، لكن عمر رفض ذلك و أبقاها كملك حكومي ، و كذلك في مصر جعلت الأراضي في أيدى أصحابها القدماء . فالنظام الاسلامى قد أقر حسب تعابيره المبدئية، أن على الحكومة أن لا توزع الأراضي المفتوحة على بعض الأغنياء و ذلك كيلا تنشأ طبقة الملاكين كما حدث في أوربا ، بل من واجبها أن تحتفظ بها لكى تستفيد بها الأجيال القادمة و تسد بها حاجات البلاد عند تكاثر السكان ، الامر الذى دعا الى إبطال الاقطاعيات الواسعة . و المسلمون و إن لم يطبقوا هذا التعليم تمام التطبيق ، لكن رغم ذلك ملوك اللاسلام لم ينحلوا عنه كل الانحلال . و حينما أسست الحكومة الاسلامية في الهند ، هي أيضا أقرت بأن الأراضي المفتوحة يجب أن تبقي عند أصحابها القدماء ، لكن الأراضي المهجورة يجب أن تعود الى ملك الحكومة . إن الاقطاعيات الكبرى في الهند كلها بنات العهد الانجليزى، و ذلك لما احتل الانجليز الهند إنهم أوجدوا طبقة من الاقطاعيين، إذ جعلوا حكام القضاء القدماء و كبار المحصلين أصحاب المناطق التي كانوا يعملون بها في بنغال و اقليم "يوبي"، و ذلك تسهيلا لأعمال الحكومة ، مع أن هؤلاء الاقطاعيين كانوا في الاوائل مجرد حكام الأقضية ، و بهذا النظام الانجليزى الجديد حرم الفلاحون الفقراء من حقوقهم .

و زبدة القول أن النظام الاسلامي عن الزراعة و المزارعين شامل كشموله في النواحي الاقتصادية الأخري، لا متسع فيه لكبار الاقطاعيين و الملاكين ، أي الحكومة الاسلامية لا يجوز لها حسب الشرع أن تقطع أحدا من الأراضي المحلية . غير أنه يمكن لرجل أن يوسع أراضيه بالاشتراء ، و توسيع الأرض بالاشتراء ليس بعمل

سهل ، لأن المال الذي يصرف لشراء الأرض إذا كان التاجر ، فلن يؤثر الأرض على أرباح التجارة الطائلة ، و إذا كان ذلك المال لمزارع ، كان يسيرا محدودا ، و الارض المشتراة بمكاسب الزراعة لن تدعه يستكثر استكثارا يخل بالوضع الاقتصادي للبلاد ، ثم إن أرضه خاضعة للتقسيم الوراثي الذي يقلصها بعد جيل أو جيلين .

الخطة الاسلامية المثلى للقضاء على الاقطاعيات الكبرى ازاء الشيوعية

ليتضح أنه لا يجوز لأحد في الشرع الاسلامي ، و إن كان كلالة ، أن يوصي بأكثر من الثلث ، و إذا كان له ولد ، كانت أرضه خاضعة للتقسيم فالتقليل ، و إذا أراد أن يخص أحدا من الاولاد بالثلث إبقاء لوجاهته و شرافته ، فلن يستطيع ذلك ، لان الاسلام لا يسمح له بذلك إذ الوصية لا تجوز لوارث و تصح لغير الورثة ، و بذلك يجعل الاسلام الاقطاعية الناشئة عن عدم التقسيم مستحيلا ، و إذا كان أحد كلالة لم يجز له أيضا الوصية بأكثر من الثلث ، أما سائر أرضه فتعود الى ملك الحكومة ثم تستعمل لأجل المصالح العامة .

و من مزايا هذا النظام الاسلامي أنه يستأصل شأفة اولئك الاقطاعيين الذين يحولون دون تقدم الآخرين كعقبات كأداء الى أجيال عديدة ، لكنه مع ذلك لا ينال من الحرية الشخصية نيلا ما ، بل يفتح باب ازدهار القوي الفكرية و المواساة العائلية ، و الاعمال الصالحة التي يراها الانسان ضرورية لاصلاح آخرته . و بعكس ذلك ، إن المبادئ التي اختارتها الشيوعية لنظامها ، هي تسحق الحرية

الشخصيـة و تمحوا المواساة العائليـة و تحرم من خدمة الدين كل الحرمان . ثم إنهم فشلوا في تحقيقها فشلا ذريعا، إن النظرية التى وضعتهـا الشيوعية عن ملك الارض ، من أن الارض كلهـا للوطن ولذا هي للحكومة، قد جعلت المزارعين أجراء ، مع أن التاجر يعد عندهم صاحبا لمتجره الى حد ما . قررت الشيوعـية لتطبيق نظريتهـا أن الارض بما أنها للحكومة ، فلذلك لها سلطـة إجبار المزارع على اختيـار المزروعات و الاراضى التي تراها ملائمة لها ، و كذلك هي تقدر عـلى أن ترسل المزارعين في زروع خاصة الى أيـة منطقـة تراها مناسبة لهم ، ولما طبق هذا النظام في روسيا بجميع عناصره ، شعر المزارعون :

١ - بأنهم استخـدموا كأجراء فقط ، و أنهم جعلـوا في وضع أحط من التجار و الصناع أيضا .

٢ - قد حطم نظامهم العـائلى بحيث يحرم أولادهم من ثمرة جهودهم .

٣ - إنهم مهددون دائما بالنفى و الجلاء عن أوطانهم .

٤ - إنهـم لا يستطيعون أن يستثمروا الارض حسب حاجاتهم اليومية، بل عليهم أن يزرعوا فيها ما تسمح به الحكومة، و بذلك يتحطم نظامهم القديم الذى كانوا يعيشون طبقه في قراهم و بلادهم معيشة حرة متكاملة .

فنظرا الى هذه الأوضاع قاموا بثورة عارمة، و استمرت ثورة المزارعين هـذه على شدتهـا سنين عديـدة ، و قل إنتاج الغلال ، و انتهى الأمر الى أن ألغى ستالين هذا النظام و استبدل به النظام القديم ، فجعل المزارعون أصحاب الارض و أتيحت لهم الحرية في

زرعهـا كما يحبون ، و بذلك أخمدت الثورة ، لكن تحقق بهـا خطأ النظام الشيوعى حسب رأى زعمائـه أنفسهم ، كما نرى أن أعداء ستـالين اتهموه بأنـه نقض نظـام لينن الزراعى و ثار بذلك على الشيوعيـة ، و قد رد عليهم ستالين بأن هدف النظام الشيوعي كان تأسيس حكومة جمهورية لعامة الناس، فلا بأس إذا استبدلنا بالمبادئ الأخرى ما يساعد على تحقيق ذلك الهدف الأساسى ، على كل حال إن رد ستالين إن دل على شيء فأنما يدل على أن الشيوعية كفلسفـة مستقلـة قد فشلت فشلا مؤكدا في تطبيق نظامها الاقتصادى من الناحية الزراعية على الأقل، و اعترف زعماؤها بأنفسهم بأنه لا يمكن تطبيق مبادئها كفلسفة مستقلة ، بل نضطر أحيانا الى تغييرها حسب دواعى الضرورة و الاستبدال بها مبادئ أخرى تساعدنا على تحقيق المصالح الشعبيـة و الوطنيـة . إن فشل النظام الشيوعى الذريع هذا تجاه النظام الاقتصادى الاسلامى الناجح لهو دليل ناصع على تفوق التعاليم الاسلامية ، و على أن الشيوعية ليست بفلسفـة ، بل إنمـا هي حركـة سياسيـة تهدف الى تقويـة روسيا ، و إن جرها لمواجهة الدين إنما هو تطاول على الحق و استخفاف به . إن السيد ستيفان كنج عضو مجلس العوام الانجليزى قام أخيرا برحلة استطلاعية، و قد نشر مقال في مجلـة (Soviet Unions News Vol. IV, No. 6) في عدد يونيو و قد كتب فيه ما تعريبه : إن لروسيا اليوم هدفين عظيمين : ١ - تشييد روسيا من جديـد ٢ - و جعل روسيا أعظم و أرقى دولة في العالم ، و جعل أهلها أغنى شعب في الدنيا .

فالشيوعية إنما هي حركه سياسية ليست إلا ، و هدفها الوحيد تقوية روسيا .

تعطيل النهضة فى النظام الشيوعى

و المـأخذ الثالث على الشيوعيـة أن النظام الـذى وضعتـه ،

و إن يهيئ الطعام و اللباس ، لكنه يعطل حركة التقدم العلمى تعطيلا تاما ، لأن المال الذى يعطى الرجل للطعام يكون قليلا بحيث يستحيل به لشيوعى أن يسافر و يتنقل في العالم ، حينما كان الروس يتمتعون بالحرية الشخصية كانوا يدخرون عندئذ بعض المال لأسفارهم ، كانوا يتجولون في العالم و يتنقلون في بلاد و شعوب مختلفة و كانوا يتعرفون على أحوال الأمم الاجنبية ، و يستفيدون بها و ينشرونها في بلادهم لافادة الآخرين ، و أهل روسيا كانوا يهتدون بهذه المعلومات و يسيرون في طريق التقدم بخطوات حثيثة . و هذه هي المدرسة الحقيقية التى أسسها السنن الطبيعية لأجل النهضة العلمية في البلاد ، و ظلت الأمم المتخرجة في هذه المدرسة تسير قدما في سبيل الرقي ، و القرآن الحكيم ، أيضا أوصى مرارا بالسير في مختلف البلاد و تفقد أحوالها ، لأن بدونه لا يتسع المجال الفكرى للانسان و لا يمكن تبادل علوم البلاد المختلفة . لكن الآن قد جعلت الشيوعية التقاء الناس بالشعوب الأخرى و التنقل للتعرف على أحوالها مستحيلا، و حيثما تنتشر الشيوعية تأت بذات النتيجة التى تستلزم الانهيار العقلى في الشعب . و قد يمكن أن نرى في البلاد الأخرى ممثلا لحكومة شيوعية ، لكن أصبحت رؤية شيوعى روسى في الخارج مستحيلة الوجود كالعنقاء . عندى وسائل واسعة متوفرة للسفر ، لكننى رغم ذلك لم أتمكن حتى الآن من رؤية شيوعى روسى بصفة شخصية ، غير أننا نرى ممثلى الحكومة الروسية ، و هذا الأمر إن دل على شيئ فانما يدل على الحرمان الاجبارى من الأموال المتوفرة ، و الحكومة الشيوعية تنتزع من الناس ما يتوفر عن غذائهم و كسائهم و تتركهم صفر اليدين . و قد يقال إن الافكار و المخترعات الأجنبية يمكن أن تنقل الى البلاد عن طريق الممثلين السياسيين ، لكنه لا ظل له من الصحة ، لأن :

١ - ممثل الحكومة مضطر لأن يعمل على جمع المعلومات التى تبعثه الحكومة لأجلها.

٢ - إن العقليات و الميول الانسانية تختلف اختلافا بينا، و سفر شخص عن اشتياق شخصي و استفادته عن ميله الخاص ليختلف اختلافا واضحا عن سفر مبعوث من قبل الحكومة، هذا الرجل المنتخب لا يمكن أن يستمد الوسائل الملائمة لجميع الطوائف ذات الاتجاهات المختلفة.

٣ - إن كثرة الاختلاط بين سكان البلاد و التقاءهم المتكرر يوجب صقل العقلية الانسانية و ازدهارها و يؤدى الى الصلح و السلام و الاتحاد و الوئام، لكن هذا النظام الشيوعى قد قام سدا منيعا دون هذه الفوائد كلها.

إن الروس الاحرار الذين نراهم في البلاد المختلفة، إما إنهم أضداد الشيوعية الذين اضطروا لمغادرة روسيا، أو إنهم شيوعيون مكلفون من قبل حكومتهم بالدعاية، لكنهم يتظاهرون لتقوية دعايتهم في البلاد الاخرى كذبا و زورا بأنهم الروس الاحرار و لا يتصلون بالحكومة بسبب، لأن الشعب الروسى إذا لم يملك من المال المتوفر شيئا، فكيف يمكن أن يسافروا كأحرار. قد حدث قبل بضعة أشهر أن أخبرنى أحد معارفي ــ و كنت في طريقى من كراتشى الى لاهور ــ بأن في العربة المكيفة الهواء روسيا يتظاهر بأنه سائح روسى حر، و يقوم بدعاية قوية للشيوعية، فقلت لمن أخبرنى عنه قل لذلك الروسى، إن ادعاءك بكونك روسيا حرا تلفيق و افتراء ليس إلا، إذ أننى عندكم من كبار الملاكين، لكن رغم ذلك أسافر في الدرجة الثانية و أنت لست من هؤلاء، لأن أمثال هؤلاء الملاكين لا يوجدون في روسيا،

فكيف يمكن لك كعامل أجير أو فلاح أن تسافر في هذه البلاد الشاسعة سفرا باذخا مترفا ؟ و إن كان عاملكم أو فلاحكم يستطيع أن يقطع آلاف الاميال في عربات مكيفة الهواء ، فلماذا تثورون إذاً ضد سكان الهند الذين هم أقل منكم تمتعا بهذه الوسائل ، و أوضاعهم تشبه في الواقع أوضاع عمالكم ؟ أين أنت الذى تعمل لحساب الحكومة من هؤلاء الفقراء ، لان الفرق بين ثرائك و قوتهم كالفرق بين الثريا و الثرى .

حاجة النظام الشيوعى الى عصا القسوة التى تنفذه

و المأخذ الرابع على هذا النظام أنه حينما يتعرض للفساد أو الانهيار ، تستولى عليه الدكتاتورية ، و تبعاتها تكون أشد خطرا من الاول ، لأن هذا النظام يقضى على المواهب و الكفاءات و يحطمها تحطيما ، فلذا كلما تعرضت هذه الحركة الى الانحطاط ، فما لبثت أن اندفعت نحو الانهيار الشامل ، و لا يمكن عندئذ أن يسد الفراغ إلا عصا الدكتاتورية . كما نرى ألمانيا أنها ما ارتضت بدكتاتورية ''هتلر'' إلا بعد أن اندفع الشعب الألمانى الى الشيوعية اندفاعا شديدا ، و مثال فرنسا أيضا يصدق ذلك ، لما اختل فيها حكم الثوار ، أدى ذلك الى ظهور نابليون الجبار ، و لم يستطع أحد من أتباع الجمهورية الحبيبة أن يحتل محله ، كذلك الشيوعية مهما تسمت ''بيرولتارية'' (Proletoriate) أو ''التوتيلارية'' (Totalitarian) فلا شك أن مصير هذا النظام الأخير هو الدكتاتورية ، بل الآن أيضا هذا النظام موجود بصورتها العملية ، لأن هؤلاء الناس و إن يدعوا بالحكم الجمهورى لكنهم لا يرضون بتسليم أعنة الحكم الى الجمهور ، كما نرى أن الحكومة في روسيا لم تكن جمهورية في يوم من الأيام ، بل ظلت الدكتاتورية سائدة ، و ''لينن'' كان

أول دكتاتور، و الدكتاتور الثانى الآن هو ستالين، و لعل مولوتوف سيكون دكتاتورا ثالثا و هكذا دواليك. على كل حال مثل هذا النظام لا يمكن أن يستمر بدون عصا الدكتاتورية و مثل روسيا يشهد على ذلك.

و المأخذ الخامس على النظام الاقتصادى الشيوعى أنه لا يقر بمناعة الربا كمبدأ أساسى. و يقال إنه لا توجد هناك المصارف الربوية المستقلة، و لم أتأكد بعد من هذا الأمر، فلذلك لا أستطيع أن أرتأى فيه رأيا معينا، غير أن عدم كون المصارف الربوية المستقلة و استنكار الربا بصورة مبدئية أمران مختلفان، و قد يمكن أن يكون انعدام المصارف لانعدام الوسائل كما يمكن أن يكون الانعدام بسبب جهل الناس بمبادئ الأعمال المصرفية، وكذلك يمكن أن يكون ذلك لمصلحة مؤقتة، و يمكن إجراء المصارف الربوية المستقلة إذا أتيحت الوسائل أو وقفت الطبقة الناهضة من الجمهور على الأساليب المصرفية، أو زالت المصلحة المؤقتة. لكن الشعب الذى يستنكر أمرا كمبدأ أساسى فلن يمكن أن يعود الى ذلك الأمر مهما تطورت الأوضاع، أو تيسرت له الخبرة و المعرفة بدقائق ذلك الأمر، أو توفرت الوسائل، لأن اقتلاعه عن ذلك كان كمبدأ أساسى و لم يكن لأجل مشاكل عارضة أو مصالح مؤقتة.

و جملة القول أن المصارف العامة إذا لم تكن في روسيا، فلا يعنى ذلك أن روسيا قد اجتثت جذور الرأسمالية أى الربا، و لقد سبق أن قلت أننى لا أعرف معرفة شخصية، غير أنه من الواضح أن كتب الشيوعية لا تتضمن أى حظر عن الربا، الأمر الذى يجعلنى حقيقا بأن أدعى أن الشيوعية لا تعارض الربا مبدئيا.

ثم أرى أن حكومة روسيا تستقرض من الدول الأخرى التي لا تعامل إلا بالربا ، و يتبين من ذلك أن الشيوعية لا تخالف الربا بل إنها تدعمه بعملها ، و لو لا ذلك لما استقرضت من الدول الأخرى ، و أيضا في الحرب العالمية الاخيرة قد استقرضت الحكومة الروسية من عامة الروس ، و يخيل الي أن هذه القروض أيضا كانت على أساس الربا .

و إذا كان ما أرى من أن روسيا لا تخالف الربا بل هي تؤيده ، و كثير من الحقائق تدعم رأيي ، كان علينا أن نعترف بأن قلة المصارف الربوية في روسيا أمر مؤقت ، و هو نتيجة تطور غير عادى في النظام السابق ، لكن إذا أخذ الروس يخرجون من بلادهم ، اقترضوا هنالك قروضا ربوية ، و عندما تتقدم البلاد في الصناعة و الزراعة ، سيتعامل الروس للنهوض بهذه الأعمال بالربا كسائر الشعوب ، و كذلك ستفتح الفروع الكثيرة للمصارف الحكومية في مختلف أقطار البلاد لأجل مواصلة الحروب بنجاح و منافسة التقدم الصناعي الواسع ، و بذا سيدفع الربا بالشيوعية شيئا فشيئا الى أحضان الرأسمالية كما دفع سائر البلاد الاوربية اليها .

و المأخذ السادس على الشيوعية الذى لا يمكن لأجله القضاء على الرأسمالية هو فتح طريق الصرافة أو البورصة ، و هو طريق صرف العملات الذى تم إجراؤه في هذا العصر بوجود المصارف المالية و تدخل الدول المختلفة ، و الشيوعية أيضا تؤيد هذا الطريق و تعمل عليه . إن سعر الصرافة (أى تعيين القيمة للعملات المتبادلة) في العصر الحاضر لا يتأسس على اعتدال تجارى طبيعي بين البلدين ، بل أصبح مصير الشعوب الضعيفة بيد المصارف المالية الكبرى ، أما الدول القوية الراقية فانها تحدد قيمة عملتها بنفسها ،

و تراعى في تعيين القيمة علاوة على التجارة الحاضرة كمية التجارة المقبلة مع بلد معين ، و الشعوب الفقيرة تحتاج دوما على أسعار الصرافة، لكنها بما أنها لا تملك القوة المالية التي تدعم احتجاجها فلذلك إنها لا تجد بدا من السكوت ، و بذلك إن الدول القوية المسيطرة تنجح في تعجيز الدول الضعيفة من الناحية التجارية مع أن تسعير الصرافة مبدأ تجارى مصطنع ، و إن المبدأ العادل الطبيعى الذى يجب أن تتأسس عليه العلاقات التجارية للبلاد هو تبادل الأشياء أى المقايضة أو تبادل الذهب و الفضة ، لكن بدلا من تأسيس التجارة على هذين الأصلين قد أسست على أسعار الصرافة، الأمر الذى جعل مصير البلاد المتأخرة بيد المصارف المالية ، و أخضع التجارة للمصالح السياسية . و لا شك أن الصرافة تؤدى الى تسهيل في التجارة ، و لا يمكن أن تستمر التجارة العصرية المتقدمة فى طريقها إلا عن طريق سهل للتبادل ، لكن ليس من الواجب أن نجعل أسعار الصرافة خاضعة للمصالح السياسية أو نتخذها وسيلة لاستلاب الشعوب الضعيفة و استغلالها الجائر . بل إننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن طريق المقايضة ـــ أى تبادل الأشياء بالأشياء و ليس طريق الصرافة ـــ يمكن أن نحوله الى صورة تلائم ضرورات العصر الحاضر و نجنبه عن تدخل الدول ، بل يمكن أن نعين لمختلف البلاد بعد استشارة تجارها و ممثلى حكوماتها وقتا لآخر ، طريقا يتأسس على تبادل الأشياء ، لا على قيمة أوراق النقد الزائفة .

إن ألمانيا تدخلت بعد الحرب العالمية الاخيرة في أسعار الصرافة تدخلا سياسيا ، و خفضت قيمة أوراقها النقدية تخفيضا استجلبت به جميع ثروة الدنيا ، و عند ما اجتمع عندها رأسمال متوفر

للتجارة مع البلاد الأخرى، ألغت أوراقها النقدية، و بذلك اكتسبت مبالغ فادحة من النقد الأجنبى بنفقات تافهة لأجل تجارتها المقبلة، و لو كانت التجارة العالمية على أساس المقايضة أي تبادل الأشياء لما أمكن لألمانيا أن تفعل ذلك. و روسيا أيضا تبعت هذا الطريق تقليدا لألمانيا لكنها ما استفادت به لأجل تجربتها التجارية الناقصة و لأجل فقد النظم الصناعية الراقية. إن أسعار الصرافة المصطنعة الزائفة لهي سلاح الأقوياء الذى يستولون به على تجارة الشعوب الضعيفة، و يحولون به مجرى التجارة الى حيث يشاؤون.

إن روسيا قد أقرت بنظام الصرافة، و بذلك أبقى أساس الرأسمالية في بلادها، و هذا الأمر سيؤدى الى زيادة روسيا في استخدام هذا السلاح بعد تقدمها الصناعي، و كثرة استغلالها لتجارة البلاد الضعيفة، و بذلك إنها و إن تظفر بثراء طائل، لكنها ستنقض مبادئها بنفسها و تصير معتدية على حقوق البلاد الضعيفة الفقيرة.

استخدام الشيوعية نظمها الاقتصادية

و المأخذ السابع على هذا النظام هو أنه يستعمل الجبر في تنفيذ قسمه الاقتصادى، و سيكون مصير هذا الجبر مدمرا للبلد. إن الشيوعية تزعم أنه يجب استلاب ثروة الأغنياء حتى لا يبقى عندهم إلا ما يسدون به ضروراتهم الانسانية الأساسية. بصرف النظر عن حسن هذه النظرية أو قبحها، نحن نرى أن الشيوعية تستبيح الاكراه و تستغل به، و بدلا من أن تقدم على إصلاح عوائد الناس عن طريق الحض و التربية شيئا فشيئا و تعويدهم على الترحم، هي تندفع نحو الجبر و تعلمه الناس، و إنها بعد

تمكنهـــا من الحكم انتزعت من الأغنيـــاء ثروتهم و استولت على ممتلكاتهم، و من الواضح جدا أن الـذين يطردون من القصور الى الأكواخ، سيكونون أشد النـــاس عداوة و بغضا لهـــذا النظام، و لذلك هم لا يضمرون لهـذا النظام أى عطف. و الاسلام أيضـا إزاء ذلك قد أخذ من الأغنياء ثروتهم، و لكن ليس بالجبر، بل أولا هو وعظهم ضد الاكتناز ثم قضى على الدواعى للاكتساب المفرط، ثم ضيق نطاق ضروراتهم، ثم جعلهم يعتقدون بحكمة الزكاة و الصدقة و أخيرا جعل الثروة المتبقيـة بعد هـذا التحريض و التقييـد خاضعة للتقسيم بين الورثـة، فبذلك إن الاسلام أيضا قـد أخذ الثروة من الأغنياء كما أخذت الشيوعية لكن الشيوعية أخذت بالقوة والعنف، بينما الاسلام أخذها بالرأفـة و الحكمة. قسوة الشيوعية هـــذه قد أدت الى إثارة طائفـة كبيرة من الأغنيـاء في البلاد المختلفـة ضد روسيا، لأن الشيوعيـة سلبت منهم ثروتهم و دفعتهم من عرش الشرف الى حضيض المذلة و الهوان.

و الشيوعيون يظنون خطأ أن الحمـاس ضد حركتهم قد خمد اليوم في جميع البلاد، فلـذا هم مسرورون جدا، مع أن هـدوء اليوم يرجع الى أن البلاد الأخرى الآن أحوج ما تكون الى مساعدة روسيا، و لذلك إنجلترا لا ترضى اليـوم الدعايـة ضد روسيـا، و لا أمريكا تسمح بالدعاية لانهما كليهما بحاجة الى مساعدة روسيا لمحـاربة ألمانيا، لكن يوم تضع الحرب أوزارها و يزول الضغط الحكومي على صوت الجمهور عندئـذ و فى نفس اليوم سيبدأ أبنـاء المصلحـة السـاكتون اليوم بالـدسائس ضـد روسيـا، و سيبذلـون ما وسعهم للقضاء على هذه الحركة (كما رأينا بعد هـذا الخطاب أن الحرب لما انتهت، نشطت الحركـة المضادة لروسيا و بخاصـة في الولايات المتحـدة الأمريكية).

قتل أواصر المودة العائلية فى الشيوعية

و المأخذ الثامن على هذا النظام أنه سحق المودة العائلية تسحيقا ، الأمر الذي سيكتب الدمار على هذا النظام أيضا . إن الشيوعية تصرف النظر عن وشائج الحب بين الأمهات و الآباء و بين الاخوة و الاخوات ، و لا تبالى بالروابط الودية بين الأقارب الآخرين أيضا . إن صغار الأطفال قد تبنتهم الحكومة لأجل تربيتهم و تنشئتهم على مبادئ الشيوعية و إبعادهم عن الدين ، وكل طفل بدلا من أن يتربى في أحضان الأم و بين أعين الأب ، ينتقل كليا الى سلطات الحكومة ، أو نقول على الأقل إن قانونهم يقرر ذلك ، و بذلك لا يقام لحب الأبوين للطفل أي وزن . و مثل هذا النظام لا يطول أمده ، إما أن يغير هذا النظام الجائر ، أو يفقد الانسان الروسي إنسانيته حتي يصير كائنا آخر . و يزعم الناس أن الشيوعية قد نجحت ، مع أن نجاحها المؤقت لأجل اضطهاد قيصر و قسوته ، و حينما يمضي على ذلك خمسون أو ستون سنة ، و عند ما تنمحي الذكريات الأليمة عن قلوب الناس و تضمحل آثارها ، عندئذ إذا نجح هذا النظام عرفنا أن الشيوعية في الواقع نجحت في كبت حب الأم و كبس عطف الأب و سحق ود الاخت . لكن ليكن واضحا على الناس أن عواطف الحب هذه لن تسحق أبدا، و سيأتي يوم تسترد فيه هذه العواطف نضارتها ، و ستعطى الأم حق الأمومة ، و يمنح الأب حق الأبوة ، و توهب الأخت حق الأخوة ، و تستعيد عواطف الحب الضائعة هذه حياتها . لكن الأوضاع الآن أسوء ما تكون ، لأن الشيوعية لا تري الانسان إنسانا بل تتخذه آلة صماء ، إنها لا تبالى بعواطف الأم لابنها ، و لا تكترث لمشاعر الأب ، و لا تحفل بأحاسيس الأخت و لا تهتم بروابط القرابة ، إنها تعتبر الانسان مجرد آلة ، لكن هذه الآلة

لن تستمر الى مدة طويلة ، و سيأتى زمان يحطم فيــه الانسان هــذه الآلــة و سيؤسس لنفسه نظاما جديدا يرعى جميع هذه العواطف العائلية حق رعايتها .

عدم الاهتمام بالكفاءات الذهنيــة

و المأخذ التاسع على هذا النظام المتطرف أنه لا يقدر المواهب الذهنية و لذلك سيضطر الرجال الموهوبون ذووا الكفــاءات العالية للهرب من روسيا لكى ينشدوا القيمة اللائقــة بانتاجهم من العالم الخارجي . إن العمل عنـد الشيوعية إنما هو عمل اليـد و هي لا تقيم للكفـاءات العقليـة و الفكرية أي وزن بدون العمـل اليدوي ، و لا مراء فى أن العمل اليدوي من جملـة الأعمال ، لكن لا شك أيضا أن الأعمال الفكرية لها قيمتها الكبرى . ثم من فطرة الانسان أنـه يتطلب عوضا عن خدماته ، و إذا لم تقـدر الحكومة الشيوعيـة الكفاءات الفكرية قدرها ، استحـال عليها أن تقاوم الفطرة طويلا ، أو اضـطر النظـام الشيوعي الى تغييـر داخـلى حتي يصبح كالنظم العالمية الأخري ، و لجأ الى إهمـال فلسفته الأساسية ، أو سيخرج ذووا الكفــاءات العالية من روسيا الى البلاد الأخري حيث يمكنهم تسجيـل مخترعاتهم و افادتهم منها ، لكن روسـيا ستحرم من هـذه الكفائات الفكرية الى الأبد . و الآن الحكومة الروسية تتمسك بمنع الناس من السفر الى الخارج بالقوة، لكن حينما يتم الاختلاط ــ و هذه الحرب ستؤدي الي ذلك الى حد ما ــ يخرج المخترعون الروس من بلادهم و سيقـلدون التجـار الأجانب في تشكيل الشركات للاستفادة من مخـترعاتهم ، كما أن اليهود حينمـا تعرضوا لاضطهـاد ألمانيـا هاجروا منها الى أمريكا ، الأمر الـذي أدى الى نقل المخترعات الألمانية ، فهؤلاء اليهود قد أسسوا مصانع كبرى بأمريـكا ، فهم

أنفسهم يستفيدون بها كما تستفيد بها أمريكا أيضا مع أن تلك المصانع كانت أولا في ألمانيا ، لكن لما اضطهد أصحابها اليهود هم هاجروا الى أمريكا و إنجلترا ، و إذا خفت وطأة النظام الشيوعي على روسيا و أتيحت لأهلها الفرصة للخروج عن بلادهم ، انتهز علماؤها هذه الفرصة للخروج، و أخذوا يستفيدون بمواهبهم الفكرية بعد الاقامة بالبلاد الأخرى ، و أما إن الضعف سيسرى في قوي الروس الفكرية إذا ظلوا منقطعين عن العالم الأجنبى كل الانقطاع ، و أخيرا سيدب الفساد الى عقولهم حتي تصير كالماء الراكد النتن .

الخطر المتهدد بانهيار الصناعة الروسية

و المأخذ العاشر على النظام الشيوعى أن الغذاء و الكساء و غيرهما من ضرورات الحياة بما أنها بيد الحكومة و هي مسيطرة على الصناعة ، و التصدير (Import) و الاستيراد (Export) كلاهما تحت سلطتها المباشرة ، و البلد الذى تأسست فيه الشيوعية كان متأخرا في الصناعات ، فلذلك لا يمكن أن تدرك النتائج الحقيقية العاجلة من هذه الناحية . لكن يتبين عند العقل أن الصناعات في روسيا ما دامت محدودة تسد الحاجات المحلية فقط ، هى تظل مجهولة الخسارة ، لأنه مهما كان إنتاج المصانع يستهلك محليا ، فلا يمكن أن نعرف مدى غلائه ، و المصانع هناك ما دامت تسد حاجات الروس فقط ، فلا يمكن أن نتبين خسارتها من ربحها ، لأن إنتاجها مهما غلا يستهلك في نفس البلد . لكن سيأتى يوم تتوفر فية الصناعات من حاجة البلاد ، و عندئذ إن سد تيار التقدم الصناعي ، كان مصير الصناعات الانهيار ، فان أطلق كان من الواجب أن يرسل الانتاج الروسى الى الخارج و كان من اللازم عندئذ أيضا أن تحدد قيمة المصنوعات الروسية بما يلائم الأسواق العالمية الأخرى ،

و لأجل هذا الاستباق العالمى إن يبعث تلك المصنوعات بما يقل عن قيمتها الأساسية ، يصبح العمال الروس عندئذ كعبيد للبلاد الأخرى بحيث يضطرون لأن يكدحوا ليلا و نهارا و يهيئوا لها إنتاجهم بأقل من قيمته الأساسية ، لكن إذا لم يسلك هذا الطريق ، توقفت الحركة الصناعية بعد تقدم محدود أو اضطرت روسيا الى اتخاذ الأسلوب الرأسمالي ، أي أن تحتل البلاد الأخرى و تفرض عليها مصنوعاتها فرضا ، و بذلك إن روسيا نفسها ستدس مزاعم الحرية فى الارض . و جملة القول أن روح التنافس فى تخفيض قيمة الانتاج فى روسيا اليوم لضعيفة جدا لعدم الاستباق التجارى ، و ستزيد فى المستقبل ضعفا . و مثلها اليوم كامرأة فقيرة تطحن عشرة أرطال من القمح يوميا ، فيسر أهلها بجهدها ، لأن إنتاجها يكفيهم لوجبة العشاء ، لكنها عند ما تخرج من بيتها و تعمل كأجيرة تتبين عندئذ قدر ما عملت و قدر ما ينبغي أن تعمل ، لأنها في الخارج تنال أضعاف أُجرتها بطحن عشرة أرطال . و كذلك لا يمكن أن نعرف أ تتقدم روسيا فى الصناعة أم تتأخر ما دام الروس يستعملون مصنوعاتهم فى بلادهم فقط . و اليوم يبدو لنا بادئ النظر أن روسيا تتقدم من الناحية الاقتصادية لكن عند ما تتوسع صناعتها ، تنكشف الحقيقة لكل ذى عينين بانهيارها الاقتصادي ، لكن إن نجحت فى سياستها الاقتصادية ، فلا بد من أن نواجه إذاً نتيجة أخرى هي أدهي و أمر ، و نشرحه تحت العنوان التالى .

فقدان المواساة العالمية فى النظام الشيوعى

و المأخذ الحادى عشر على النظام الشيوعي أنه يتأسس على عاطفة المواساة الوطنية المحدودة ، و يعوزه مبدأ المواساة العالمية ، كما نرى أن النظام الشيوعي إذا نجح في تقدمه الصناعي ، اضطر

لأن يؤسس عندئذ أقوى نظام رأسمالي و أعظمه، و أخطر من سائر النظم الرأسمالية. و إننى لأدهش لطبقتنا المثقفة كيف تدعم الشيوعية رغم هذه الحقائق الواضحة ، و الحق أن روسيا قد قدمت أعظم مثل للرأسمالية الجماعية التى مصيرها النهائي هو الخسران المبين للعالم كافة. إن الشيوعيين في روسيا و في البلاد الشيوعية الأخرى ليعجبون بأن الشيوعية قد هيأت الغذاء و الكساء لكل شخص ، و لا شك أننا أيضا معجبون بهذه الناحية الخاصة ، لكن مع ذلك لا يمكن أن نغض البصر عن الخطر العظيم الذي سيواجه الدنيا بصورة نظام رأسمالي متطرف.

إن روسيا تدعى أن إنتاجها الصناعي خلال فترة ١٩٢٨م الى ١٩٣٧م قد ازداد بستمائة و خمسة و عشرين فى المائة ، أي إن كان مبلغه من قبل ألف مليون فصار الآن ستمائة ألف مليون و إن كانت روسيا تنتج مائة سيارة قبل فالآن قد بلغ إنتاجها ٦٢٥٠٠ سيارة ، و إن كانت مصانعها تنتج من قبل مائة ألف تخت من الثوب، فالآن قد بلغ إنتاجها اثنين و ستين مليونا و نصفا (٦٢٥٠٠٠٠٠) . هذا التقدم في الواقع يجدر بالتقدير ، إن الشيوعية الروسية أيضا تدعى بأن رأسمالها الصناعي قد ازداد خلال فترة ١٩٢٨ الى ١٩٣٧م من عشرة ملايين روبل الى خمسة و سبعين بليون روبل (و قيمة روبل الراهنة قليلة جدا) ، كأنها ضاعفت رأسمالها سبعة أضعاف و نصف ، كما قامت بمضاعفة إنتاجها الصناعي بستمائة و خمسة و عشرين ضعفا ، و كذلك هي تدعي بأنها أنفقت لأجل تقدمها الصناعي فى ١٩٣٧ فقط ثلث مواردها القومية، و هذا أيضا يدل على تقدم عظيم ، لكن مما يستدعي التفكير أن روسيا هل تستطيع أن تواصل هذا التقدم مع الانقطاع التجاري عن البلاد الأخري و بالعمل على سياسة الستار الحديدى. إن

الأوضاع الراهنة الآن هي أن روسيا لا تصدر مصنوعاتها الى البلاد الأخرى و لا تستورد منها شيئا إلا ما شذ و ندر مما يضطر لأن تسد به حاجة مصانعه ، كأن مثل روسيا الآن كمثل فلاح هندى يقتات من أرضه فينتج من بعضها العسل الأسود ، و من بعضها حبوب "ماش" و الأرز ، و يستخرج من بعضها الدهن و من بعضها القمح و كذلك يقضى أيام حياته . و لكن هذه الأوضاع لا يمكن أن تستمر في كل مرحلة من مراحل المدنية ، و لو ظلت هذه الأوضاع كما هي في جميع مراحل الحضارة ، لما تعرضت أمم الارض كلها الى الخلافات الخطيرة التي قد أدت الى حربين عالميتين أيضا . على كل حال إن الوضع الراهن في روسيا لا يمكن أن تستمر في البلاد المتحضرة .

هزة عنيفة للاقتصاد العالمي

إن شعوب العالم كلها تقر بأنه لا يمكن اليوم أن تعيش أمة بمفردها ، بل هي أحوج ما تكون الى الاتصال بالامم الاخرى ، و التجارب تشهد على ذلك . فاذا كانت روسيا لا تستطيع أن تتقدم بالعمل على سياسة الستار الحديدى ، أفلا تكون هى إذاً بحاجة الى إرسال مصنوعاتها الى البلاد الاخرى بعد أن توفرت عن حاجاتها المحلية ؟ و ليس ما حدث في الحرب العالمية الاخيرة ببعيد عنا لما اضطرت روسيا الى أن تستورد من إنجلترا و أمريكا مواد كثيرة جدا، و إذا استمرت تقدمها الصناعي السريع المدهش فلا تلبث المصانع الروسية أن تنتج في بضع سنين إنتاجا وفيرا سيلجئ روسيا الى بيعه فى البلاد الاخرى . فتفكروا في ذلك اليوم المدهش، أفلا تعمل روسيا عندئذ بنفس السياسة التي يتمسك بها اليوم كبار التجار ؟ أفلا تتخذ إذاً نفس الوسائل و الاساليب التي

يختارها التجـار البارزون في أمريكا و انجلترا ؟ أى أ فلا ترغم بعض البلاد بحيلـة ما على أن تشترى مصنوعاتهـا ، لـكيلا يتعطـل عمالها، و لكيلا يتضرر تقـدمها الصنـاعى و الاقصادى . كما نرى أنـه إذا كان المبحث حرية الهند، انبرى يخطب بعض كبار المفكرين الانجليز خطابات مثيرة لتدعيمها ، لكن إذا كانت القضية متصلة بالاقتصاد ، عندئـذ أخذ العلماء الاقتصـاديون البريطـانيون يقولون أن المصالح البريطانية يجب أن تراعى و تحفظ ، فنفس هذا الوضع سيتكرر في روسيـا، لكن بينما يكون التنافس التجارى الخارجى في أمريكا و إنجلترا عن طريق التجـار الاقوياء ، لم يكن نفس التنافس في روسيا عن طريق التجـار بل سيكون النظام الاقصادى الروسى بتمامه ضد تجـار البلاد الاخرى ، و إذا كان هـذا الوضع في روسيا ، لم تكن روسيا لتأمر باغلاق مصانعها و تعطيل عمالها و حظر تجارتها مع البلاد الاخرى، بل إنها ستتخذ مختلف الوسائل لترغم البلاد المجاورة على اشتراء إنتاجها، و الحق أنها لن تدخر حيلة يستعملها كبار التجار الرأسماليين، و بما أن الصناعة الروسية بيد الحكومة فلـذلك القوة السياسية أيضا ستساعد على تحـقيق هـذا الغرض . إن روسيا اليوم هي من الدول الكبري عندها قوة الحكومة ، و هي تملك الابهـة و الروعـة ، في هـذه الأوضاع سوف لا يمكن أن تقـاومها صغار البلاد بل لا يمكن أن يقاومها تجار أمريكا و إنجلـترا أيضا . عندئذ سوف لا يهم روسيا توفير الثروة بالتوسع التجاري فقط ، بل إنما يهمها عندئذ أن يرتفع مستوي روسيا الصناعي ، و لا يصير العامل جائعا و لا تصبح مصانعها معطلة ، و أن تستجلب الثروة الاجنبية الى بلادها ، فعندئذ ستضطر البلاد الضعيفـة المجـاورة لها أن تفتح لانتاجهـا أبوابهـا كما هي تفتح لتجار الغرب ، بل الادهي من ذلك أن الدنيا ستعترض لهزة اقتصادية عنيفة .

إن بعض الناس يزعمون بهذه المناسبة أننا سننضم الى روسيا ، و بذلك سنتمتع بنفس الخيرات التي يتمتع بها سكان روسيا تحت ظل الشيوعية . و الرد على ذلك أن عدد هؤلاء المطالبين ضئيل جدا ، إن معظم الشيوعيين في البلاد الاخرى إنما يريدون تطبيق المبادئ الشيوعية في بلادهم ، لكنهم لا يريدون ضم وطنهم الى روسيا . إن الشيوعيين في إنجلترا يرغبون تطبيق المبادئ الشيوعية في بلادهم ، لكنهم لا يرضون بأن تصبح إنجلترا مقاطعة لروسيا ، بل إنما يريدون الاستفادة من مبادئ الشيوعية ، كذلك الشيوعيون في أمريكا يتمنون تنفيذ المبادئ الشيوعية في بلادهم ، لكنهم يرفضون أن تصير أمريكا مستعمرة خاضعة لروسيا .

إننى لست بموقف من أن أدعى عن الهند بشيء ، و أن الشيوعيين هنا ماذا يرون ، لان الشيوعيين الهنود عندنا معظمهم لا يعتادون التفكير الجدي ، و أكثريتهم الساحقة من طبقة جاهلة ، إنهم متعودون على الهتافات الجوفاء و لا يدركون حقيقتها ، و بقيتهم ينجرفون في تيار العواطف و لا يلتفتون نحو داعى الفكر و العقل . و من الممكن أن يزعم تسعون بالمائة من الشيوعيين في الهند بأنهم لا يعترضون على انضمام الهند الى روسيا ، لكن الشيوعيين في سائر العالم لا يقولون بذلك ، ولا يمكنهم أن يقولوا به ، لان هذا القرار يؤدى الى دمارهم و هلاكهم .

عدم المساواة فى المستعمرات الروسية

ثم مما ينبغى التفكير فيه ، أن أوضاع المستعمرات الآسيوية الروسية لتشهد على البون الشاسع بين أهلها و بين الاؤربيين . إننى مستعد لان أدفع جميع النفقات لان يصطحب الشيوعيون أحد

أتباعى و يذهبوا به الى موسكو و بخارا ، ثم عليهم أن يثبتوا أن فقراء بخارا يلقون من المساعدات مثل ما يلقاه فقراء موسكو ، أو يهتم بغذائهم و كسائهم و تعليمهم نفس الاهتمام الذى يتمتع به فقراء موسكو . إن التنقيب عن الأوضاع ليسفر يقينا عن فارق بين بينهما ، و نفس الحالة تسود سائر المستعمرات الآسيوية . و ليس أدل على ذلك مما صرحت به الحكومة الروسية قبل أسبوعين عن مستعمراتها الآسيوية ، و أن المشاريع في طريق الاعداد لاجل إصلاح أوضاع هذه المناطق ، و سيوضع برنامج خاص لاجل النهوض بها . هذا الاعلان ليكفى لكشف الغشاوة عن أعين اولئك الذين يظنون خطأ أن روسيا تعامل أهل مستعمراتها الآسيوية نفس المعاملة التى يعاملها سكانها الروس . و لو كان ذلك و كانت التعديلات الاقتصادية فى روسيا الأوربية و روسيا الآسيوية متماثلة ، و كانت كلتا المنطقتين فى وقت واحد بمستوى واحد من الرقي ، لكن لم يكن كل ذلك ، فالادعاء بالمساواة الشيوعية يناقض الحقائق نقضا واضحا . الفقراء البائسون موجودون في تلك المناطق المتأخرة أيضا ، لكن الروس لا يعاملونهم معاملة سكان روسيا أو معاملة الأوربين منهم ، فالفارق بينهما بين .

إن بعض الناس يزعمون أن الشيوعية تتأسس على المساواة ، و لن يمكن أن تسلب حقوق الناس لأجل تقوية روسيا ، لكن هذا الزعم وهم ليس إلا ، و هو كما يقال : إن الشيوعية قانعة بهذه الحالة ما لم تشعر بحاجة الى الاتصال بالبلاد الاجنبية أو ثروتها ، لكن إذا زال عنها هذا الاضطرار ، اندفعت نحو استغلال البلاد الاجنبية و استلابها و تحطيم نظم اقتصادها اندفاعا أشد من سائر أمم الارض ، و مما يدل على ذلك أن نظام روسيا الداخلى لما كان مضطربا ، كانت عندئذ أقطار جورجيا و فنلندا و لطويا ولثونيا

و استونيا كلها حرة ، و كان الروس عندئذ يزعمون أن من مزايا نظامنا أنه لا يصطدم بالبلاد الاخرى و أننا نعتقد بحرية الضمير ، إننا حررنا البلاد التي كانت تنشد الحرية أى لطويا و لثونيا و استونيا و فنلندا و بولندا و جورجيا و غيرها ، و لقد رددنا الى تركيا قسم أرمينيا الذى يتصل بها ، لكن حينما خف الاضطراب الداخلى في روسيا ، ضمت جورجيا الى روسيا ، و لما اشتد ساعدها جعلت تنازع فنلندا على الحدود ، و لما حازت القوة استولت على لطويا و لثونيا و استونيا و انتزعت بعض مناطق رومانيا ، ثم قهرت فنلندا و تسلطت على بعض مناطقها ، ثم ضيقت الخناق على حرية سائر هذه البلاد ، و الآن يجرى الاستيلاء على بعض مناطق بولندا ، و يفرض تحديد حرية باقيها على أن الدول المتاخمة لروسيا يجب أن تكون خاضعة لها ، و طبق هذا القرار يجرى التدخل في الشؤون الداخلية لبولندا و تشيكوسلوويكا و رومانيا ، و يستمر إعداد الخطة للاستيلاء على منابع إيران ، و يطالب من قبل روسيا بأن ترد تركيا بعض آرمينيا اليها ، و بأن تعترف حقوقها على مضيق دانيال ، أو كانت لدول الرأسمالية العريقة غير هذه الاساليب ؟ بل إنها كانت أخف و ألين من روسيا في استعمالها ، إن بريطانيا كانت تضمر منذ طويل حاجة ماسة الى مضيق دانيال ، لكنها لم ترد أن تضغط على تركيا خلال قرون مثلما تضغط عليها روسيا منذ بضع سنين ، و الزعم رغم هذه الأوضاع بأن روسيا بعد نهضتها الصناعية لن ترغم جاراتها على الخضوع لها من الناحية الاقتصادية ، كما يرغم تجار الدمقراطيات الغربية عن طريق حكوماتهم البلاد الأخرى ، لوهم ليس إلا ، إن الحقائق قد أثبتت أن روسيا لما حازت القوة ، ضربت بجميع دعاويها عن المساواة و الحرية عرض الحائط ، و الآن هي تستأصل ادعاءها بالانقطاع عن سائر البلاد ، و اعتناءها بضرورات الروس الحيوية فقط ، و حينما انحرفت الشيوعية عن آرائها

في عالم السياسة ، و هي نقضت مبادئها لاجل مصالح بلادها و تفوقها نقضا واضحا، و هي استولت على جورجيا و بخارا و فنلندا و لطويا و لثونيا و استونيا ، و قد نجحت بعض النجاح فى التسلط السياسى على فنلندا و بولندا ، و رومانيا و تشيكوسلوويكا ، و هي تحاول جهدها في المؤامرات لاجل فرض السيطرة السياسية على تركيا و إيران، و تفكر في تقسيم الصين أيضا، فأية قوانين المساواة و الحرية أمرتها بالاستيلاء على هذه البلاد و لماذا ؟ فلماذا فرضت على فنلندا أن تقطع جزأ منها لروسيا ؟ و لماذا سلبت حرية لطويا و لثونيا و استوينا ؟ هل كان من الواجب على هذه البلاد أن تحمي روسيا البيضاء و تفدي روسيا بذواتها ؟ أو كان من المفروض على جورجيا و بخارا أن تنضم الى روسيا ؟ و إذا كانت حرية الضمير و المساواة تسمح لكل ذلك فلماذا لم تنعكس القضية ؟ و لماذا لم تقطع روسيا جزأ منها لفنلندا لكى تتقوى و تحمي نفسها بنفسها ؟ و لم تتنازل روسيا عن بعض مناطقها لبولندا و رومانيا و تركيا و إيران لكى تتقوى هي أيضا ؟ و هل هي أحوج الى الدفاع و الحماية أم روسيا القوية ؟ أما من ناحية الدفاع فيجب أن تضم مناطق أخرى الى هذه البلاد الصغيرة لا الى روسيا ، لكن الحق الذى لا ينكر أن روسيا فيما مضى كانت هادئة ، لان القوة كانت تعوزها ، لكن حينما ظفرت بالقوة أصبحت هذه البلاد الصغيرة لقمة سائغة لها ، لكن قيل لاجل ذر الرماد في أعين العالم أننا نحتل هذه البلاد لان الدفاع عن حدود روسيا مستحيل بدونها، و إذا كانت هذه الحيلة صحيحة، جاز إذاً لاهل أمريكا أن يقولوا إنه لا بد لنا من احتلال جزائر يابان، لان حماية بلادنا متعذرة بغيرها. و يقال ”إن القوة لا تغلب“ و القوي يمكنه أن يتخذ حيلة ما ، حينما حازت روسيا القوة هي أيضا أقدمت على سلب حرية البلاد بعذر الدفاع عن سيبيريا ، أو الدفاع عن لينن غراد ، أو لحماية روسيا البيضاء أو الذب عن

يوكرينيا . فاذا كان هذا هو موقف روسيا من الناحية السياسية ، فكيف يمكن إذاً أن نسلم بأن روسيا على الاستعداد للعمل على المساواة الاقتصادية مع البلاد الاخرى ؟ و إذا قلتم إننا لا نسلم أن روسيا ستمسك بهذا الموقف من الناحية الاقتصادية لان السياسة منفصلة عن الاقتصاد ، فالرد على هذا الزعم أن موقف الشيوعية التي تنادى بالمساواة من إيران أنها تلح على الاستيلاء على منابع إيران النفطية ، أو ليست إيران أحق بالاستفادة من منابعها حتى تطالبها إحدي الدول الكبري بحقوق الافادة من تلك المنابع ؟ فاذا كانت إيران نفسها أحوج ما تكون الى منابعها و إذا كان سكانها يتضورون جوعا ، فلماذا تطالبها روسيا إذاً ؟ فاذا كانت روسيا تهدف الى المواساة الانسانية ، فلماذا لم تقدم لايران مساعدات مالية غير ربوية لكى تتقدم إيران في حفر المنابع و استخراج النفط و تتمكن من إصلاح الوضع الاقتصادى في بلادها ، أليس يدل ذلك على أن روسيا تريد بعد أن حازت القوة ، أن تسلب المنابع من إيران و تحتلها احتلال جائرا ؟

بعض الناس يزعمون أن الانجليز أيضا قد استولوا على منابع النفط في إيران ، و ردى على هؤلاء بأن الانجليز أيضا أتوا بمنكر غير أنني أقول أن روسيا كالانجليز أيضا أساءت ، فعليكم أن تسبوا هذا و تستنكروا ذاك أيضا ، لكن ليس من العدل أن الانجليز إذا أتوا بمنكر أصبحوا عرضة للطعن ، لكن روسيا إذا فعلت قبيحا أصبحت بريئة عندكم حقيقة بالمدح ، و إن كان الانجليز قد استولوا على منابع ”ابادان“ في إيران ، فان مطالبة روسيا حقوقها في تلك المنابع لتدل على أن موقف روسيا الاقتصادي لا يختلف عن موقف البلاد الرأسمالية العريقة ، و أنها ليست بمستعدة للتعامل المساوى مع البلاد الاجنبية ، و لو كانت مستعدة لذلك ، لقالت

لايران إذا طالبت بالاستفادة من منابع "باكو"، هلمى استولى على هذه المنابع ، و لو كانت معاملة روسيا مساوية لقالت لايران انت تستحقين بالمطالبة مني كما أنا أستحق المطالبة منك ، لكن روسيا ترفض المبدأ رفضا باتا . و هذه هي بداية التقدم الصناعي في روسيا ، و حينما تزداد الصناعة الروسية تقدما ، تشتد استغاثة البلاد الاخرى ضدها و ستحطم صناعة تلك البلاد تحطيما لم يسبق له مثيل، لان الشيوعية قد قضت على الرأسمالية الفردية فقط، وَ لم تمس الرأسمالية الجماعية بسوء ، بل إنها عملت على تنمية الرأسمالية الجماعية الى درجة لم تبلغها من قبل ، و الرأسمالية الجماعية هي أخطر نظام على الاطلاق ، و لاجل هذه الخطورة قد سنت أمريكا قانونا حاظرا لجمعيات الشركات التجارية (Trust System) و جمعية جمعيات مختلف البلاد التجارية (Cartel System) .

تأسيس رأسمالية خطيرة و طريقان لابطالها

إن التجارب الاقتصادية لتشهد على أن التجار الآحاد لا ينجحون مثلما تنجح الشركات ، و الشركات لا تنجح مثلما تنجح جمعية جمعيات الشركات لمختلف البلاد ، و هذه الاخيرة لا تنجح مثلما تنجح الشركات التى تدعمها حكومة بجميع ثروتها و سياستها كما نرى في روسيا ، يمكن للبلاد الصغيرة و البلاد الكبيرة غير الراقية أن تقاوم شركات الآحاد ، لكنها عاجزة عن مقاومة الرأسمالية الجماعية كل العجز .

و قبل ذلك أيضا كانت البلاد الصناعية الكبيرة تسيطر على البلاد الصغيرة لكن لاجل وجود الرأسمالية الفردية لم يكن من الضروري لبلد صغير أن يكون خاليا من الافراد الرأسماليين ، و بما أن التنافس كان عندئذ بين الآحاد ، لذلك بعض الافراد كانوا

يقاومون بلـــدا راقيا عظيما مع صغر بلـــدهم ، لانهم كانوا أيضا من الرأسماليين . إن إنجلترا بلد صناعي راق جدا، لكن مع ذلك إن بعض الرأسماليين في هولندا و بلجيكا و سويسرا كانوا يستطيعون أن يقاوموا الرأسماليين الانجليز ، لان المنافسة لم تكن بين حكومة إنجلترا و دول بلجيـكا و هـولنـدا و سويسرا ، بل كانت بـين آحـاد الرأسماليين في إنجلترا و هولندا و بلجيكا و سويسرا ، و في مثل هـــذا التنافس يبقى للرأسماليين في البلاد الصغيرة متسع للتقدم الذى تستفيد منه الطوائف الاٴخرى أيضا . و هـــذا الفرق كمثل الفرق الذى نرى عنـد ما يواجـه جيش بلجيكا الجيش الانجـليزى ، فلا يمكن للاول أن يغلب الثاني لكن حينما يواجه جندي بلجيكي جنديا إنجلـيزيا فيمكن أن يهزم الاول الثاني .

و قصارى القول أن الرأسمالية الفردية أيضـا أمر خطير، لكن مع ذلك يبقى لاهل البلـدين المتنافسين منفـذ للنجـاة من أفرادها ، لكن الرأسماليـــة الحكـوميـــة لا يمكن أن تقـاومها البلاد الصغيرة و لا البلاد الكبيرة غير الراقيـة و لا يبقى لها مفر منها و لا ملجـأ ، و هـــذه المقـاومة غير المتكافئـة عبث ، و مثلها كمثل جيش مسلح بالعصي يقاتل جيشا مسلحا بالمدافع الرشاشة . إن الشيوعية بتأسيسها الرأسمالية الجماعية التى تدعمها موارد الحكومة كلها و التى يسندها التفوق السياسي لتلك الدولة أيضـا ، و هى بصفة جماعية عند آحاد الصناعيين و التجار فى البلاد الاخرى، أجل قد أوجدت بهذا النوع من الرأسماليـة طريقـا يجعل عالي النظام الاقتصـادي العالمي سافلـه، و النـاس كانوا يصطرخون ضد جمعيات الشركات (Trusts) و نقـابـة جمعيـات الشركات الانتـاجيـــة (Cartel System) و كانـوا يشكـون اضطهادها ، لكن الحركـة الصناعية النـاهضة طبق النظـام الشيوعي سيكون خطرا مهددا لسائر البلاد ، و يكون من العظمـــة و الشدة

بحيث تبدو إزاءه جمعيات الشركات و جامعة الجمعيات كابن خمس سنين أمام جني هائل . إن تاجرا إنجليزيا كبيرا كان يستطيع أن يقاوم تاجرا كبيرا فى أمريكا ، و إن لم يستطع فكان من الممكن أن يجتمع بضعة تجار إنجليز فيؤلفوا جمعية للشركات ، و عند ما كان يتعذر لتجار إنجلترا و أمريكا أن يقاوموا المصنوعات الالمانية المتقنة، كانوا يجتمعون تحت نظام جامعة جمعيات الشركات و يشتركون فيها كمساهمين . لكن من المستحيل أن يقاوم الحركة الصناعية الشيوعية حتى أقوى جامعة الجمعيات ، لان المصانع الشيوعية الراقية لا تشتغل بمساعدة تاجر أو تاجرين بل تمدها الموارد الحكومية كلها مع جند مجند من السفراء الدبلاماسيين ، و جنود محاربة من البحرية و البرية ، لان سقوط هذه المصانع لا يكون سقوط تاجر أو شركة ، بل سيعتبر سقوط الحكومة الروسية ذاتها ، لان هذه المصانع تديرها الحكومة نفسها و تسيطر عليها ، فالصناعة التى تدعمها هذه القوى كلها لا يمكن أن يقاومها التجار الاجانب و لا جمعيات الشركات و لا جامعة جمعيات الشركات لمختلف البلاد .

فالشيوعية الروسية قد أسست أخطر رأسمالية لم يسبق لها مثيل ، و لا يمكن مقاومتها إلا بصورتين ممكنتين و هما :

أولا : أن يخضع العالم كله للنظام الشيوعي أى تنضم جميع البلاد الى الحكومة الروسية ، و بذلك تزول المسابقة غير المتكافئة ، لكن هل تتسع الشيوعية لهذا الانضمام الشامل ؟ و هل الانجليز و الامريكيون و الفرنسيون مستعدون لان يضموا أنفسهم الى روسيا تفاديا للخطر المقبل ؟ و هل بعد هذا الانضمام من أمل لان ينالوا حقوقا متساوية مع أهل روسيا من كل ناحية ؟ و إذا كان هذان الامران مستحيلين — و يوافقنى فى استحالتها كل لبيب — كان هذا الحل باطلا .

ثانيا : و العلاج الثانى الممكن لهـذا الخطر الداهم، هو أن يستقل كل بلـد بتطبيق النظام الشيوعي عـلى حـدة ، و تسود الشيوعيـة العالميـة العالم أجمع ، الامر الذى سيؤدى الى تنافس بضع جمعيات الشركات، و هذه النتيجة ستكون أشد خطرا من الأوضاع الراهنة ، إنما يثير هذا التغيير فارقا وحيدا ، و هو أن التنافس من قبل كان بين تاجر هندي و تاجر روسي ، لكن بعد هـذا التغيير إن وزارة الصناعـة الهنديـة ستنافس وزارة الصناعة الروسية . كأن الحروب التى تنشب اليوم بعد فترات متباعدة جدا ، ستحيط بالعالم عندئـذ بصورة مستمرة دائمـة ، وكل وفـد تجاري سيرأسه سفير الحكومة ، وكل بضاعة تجارية ستصطحب جهود الحكومة و أسطولها البحرى لحفظها ، و النزاعات التجـارية سوف لا تقع بين التجار بل بين الحكومات، و لا يقوم بالمراسلات التجارية مديرو الشركات، بل وزراء الحكومة سيقومون بهذا العمل ، و هذا النظام لا يتسع لبلد صغير أو بلد كبير غير راق . إن البلاد الكبيرة غير الراقية ستفقد حريتها فى هـذا النظام كل الفقـد ، و البلاد الكبيرة الراقية سيستمر التنافس بينهـا كما كان من قبـل ، و الفـارق الوحيد هو أن التنافس من قبل كان فرديا ، لكنـه فى النظـام المقبل سيكون بين حكومة و أخرى .

و إن قيـل إن جميع الشعوب ستجتمع على اتفـاقيـة عادلـة ، فليس هذا من الصحـة فى شئ ، لان روسيا اليوم تختلف عن روسيا الغد ، و هما تختلفـان عن روسيا المستقبل ، و عند ما تزدهر صناعتها و تتضاعف ثروتها لن تستعـد عندئذ لتقسيم مواردها الهائلـة بل هى اليوم أيضا ليست بمستعدة لذلك، و لو كانت على العكس لما أرادت أن تستولى على منابع النفط فى إيران .

ان عمل روسيا يناقض قولها

إن حضور روسيا فى مؤتمر الثلاثة الكبار ليدل على الانحراف عن موقفها الاساسي ، إن الدول الاخرى ما عدا هؤلاء الثلاثة الكبار ليست بشئ ، إن هى إلا كبائس فقير إزاء ثري قوي ، فبلجيكا و هولندا ليستا إلا كرجل ضعيف فقير ، أما روسيا و إنجلترا و أمريكا فليست إلا كأبطال أقوياء أصحاب الملايين . فاذا كانت روسيا متمسكة بمبادئها ، كان عليها أن لا تفرق بينها و بين هذه البلاد الفقيرة ، و كان ينبغى لها أن تصرح بأن مبدأنا المقرر هو أن جميع بنى الانسان سواسية فى الحقوق ، و لا نريد أن نفرق بيننا و بين هذه الدول الضعيفة ، كما أن أنفسنا عزيزة لدينا كذلك أنفسهم أعز عندهم ، و كما أننا نستأثر مصالح بلادنا كذلك هم يرعون مصالح بلادهم ، فلا ينبغى أن يكون بيننا و بينهم تمييز فى المؤتمرات الدولية ، لان كلا منا يريد أن يرعى حقوقه . لكن حكومة روسيا لم تفعل شيئا من كل ذلك ، و على العكس هى طالبت بأن الشؤون الدولية و القضايا الاخرى يجب أن تتم عن تشاور الثلاثة الكبار ، إنها تغالت فى تقدير رأيها دون آراء بلجيكا و هولندا ، و إذا كان بين رأي روسيا و آراء بلجيكا و هولندا فارق ، و إذا كانت الشعوب الضعيفة عديمة الاهمية عند الامم القوية ، و إذا كان شعب من الشعوب الضعيفة لا تستحق المعاملة المساوية ، فلماذا إذاً تختص المساواة بفرد إزاء فرد آخر ؟ و لماذا يمحى الفارق الطبيعي بين عالم و جاهل و بين ذكي و بليد ؟ و انضمام روسيا نفسها الى الثلاثة الكبار ، و تأكيدها بمبدأ هيئة الثلاثة الكبار أو الخمسة الكبار ، ليدل دلالة واضحة على أن ادعاء روسيا بالمساواة إنما هو تلفيق و تزييف . فاذا كانت الحكومة الكبيرة تستحق لكبرها المعاملة الخاصة ، فلماذا إذاً لا يستحق العالم بالنسبة الى الجاهل

و الصانع المفطور على البراعــة إزاء الصانع البليــد الجامد فضلا و إيثارا و إفادة من فنيها ؟ إن حط شعب صغير إزاء شعب كبير لأشد خطرا من أن يسبق رجل زميلـه بكفاءته ، و بخاصة إذا كانت المبادئ الاسلامية النزيهة كفيلة لاقامة المساواة الطبيعية .

و قد تذكرت بهذه المناسبـة قصـة تتصل بأحد الزعماء الكبار ؛ اجتمع مرة عديد من الزعماء من مختلـف أقطار الهنـد ببلـدة لاجل التفكير و البحث فى بعض القضـايا الهامـــة ، فأبرق الى فخــامـة الزعيمين سكندر حيات و فيروز خان بالدعوة الى هـــذا المؤتمر ، فعقـد المؤتمر "بشملة" و كان عدد الزعماء المجتمعين سبعين اوثمانين على الاغلب، فعندما رأى ذلك الزعيم هذا العدد الوفير من الزعماء ساءه ذلك من ناحية تمثيلهم للهند ، فقال فى خطابه : إن القضايا الهامة لا يقطع فيهـا بحكم فى مثل هـــذا الاجتماع الكبير و أري من الاجدر بنا أن ننتخب بعض زعماء الزعماء و نعلن لسائرهم ما نتخذ من القرارات . نفس هذا الموقف تقفه اليوم روسيا، هى تصر على التساوى بين زيد و بكر لكن إذا كانت القضية تتعلق بالحكومات، قيل من قبلها إن على الدول الصغيرة أن تخضع لما نقرر نحن الثلاثـة الكبار ، و ليس لها حق لان تجالسنا فى المؤتمر أو تشاركنا فى أعمالـه . فما الداعى يا ترى الى ذلك ؟ و ليس ذلك إلا أن روسيـا أكثر منهـا حيـازة للمدافع، و هى تملك من الدبابات و الطائرات و الجنود ما لا تملكه بلجيكا و فرنسا و هولندا ، فاذا كانت تستحق لاجل كثرة عتـادها الحربي أن يكون صوتها أشد وقعا من سائر الأمم، و هى لا ترضى بأن تكون متساوية مع صغـار البلاد ، فكيف يمكن إذاً أن تضمها فى المستقبل الى نظامها ؟ و البلد الذى لا يريد أن يقيم لآراء هذه البلاد وزنا او يجالسها فى نوادى الصلح و الامن كيف يمكن أن يرضى بمنحها الغذاء و الكساء ؟ و حينما تزدهر الصناعات الروسية ، فلا بد من أن تلتمس البلاد الواطئة دون الانداد .

و خلاصة القول أن الهتاف بموت الرأسمالية ليس بشئ و هو مجرد وهم فى قلوب الناس ، و الهتاف الحقيقي عند الشيوعيين أن الموت للرأسمالية الامريكية و الحياة للرأسمالية الروسية ، و مصير ذلك ليس ببعيد عن مدى التفكير، لان الناس كان يمكنهم أن يقاوموا الرأسمالية غير الروسية ، لكن الرأسمالية الروسية الحكومية لا يدان لأحد لمقاومتها ـ

منع الاجانب عن الدخول فى روسيا

إن روسيا نفسها لتشعر بضعفها من هذه الناحية ، و لذلك هى تطبق الانقطاع عن البلاد الاجنبية بكل قوة ، إن ''ستيفان كنج'' عضو مجلس النواب البريطانى قد رجع أخيرا عن زيارة روسيا، و قد ضمن أوضاع روسيا فى مقال له نشر فى عدد يونيو من مجلة Soviet Union و قد كتب فيه : ''إن الحكومة الروسية لا تريد أن يطلع الشعب الروسي على آرائنا او رأى أجنبي آخر بحرية و بغير حجاب''. ثم يقول فى موضع آخر من مقاله : ''و لا يمكن لأحد أن يدرك سرائر الحياة الروسية إلا عن طريق الحكومة الروسية و هذه المشكلة ستستمر الى سنين عديدة''.

ثم قد زارنا فى الايام الاخيرة وفد من الخبراء الروس و كان يصطحبهم بعض خبراء أمريكا أيضا ، فدهشوا لما رأوا فى الهند ، لانهم فى روسيا لا يملكون و لا فلسا للسفر لكن الرجل الهندي يتنقل أينما شاء بكل حرية و سهولة ، و لذلك إنهم لما زاروا الهند على حساب حكومتهم ، رأوها كما يرى المقبور عالم الآخرة ، و إن هذا إلا نتيجة جهلهم ، و إلام يمكن إبقاء الروس فى المخازن المثلجة : و سينقض هذا الجدار فى يوم من الايام، و سترى الدنيا يومئذ تطورا عظيما.

بعض الامور الجديرة بالتفكير عن الاقتصاد الروسى

و إننى لاشك فى المساواة المطبقــة فى روسيا أيضا لكن بما أن الاوضاع الداخلية هناك لفى غمة عن علمنا ، لذلك لا يمكننى أن أزيدكم شرحا ، لكنى أعلم علما أكيدا بأن زي الجندي الروسي أبلى ما يكون ، و هذا ما بلغنى عن طريق بعض الضباط و الجنود الاحمديين الذين أتيحت لهم فرصــة الاقامــة مع الجنود الروس ، و قد أخبرونى بأن زي الجندي الروسي و بخاصة الآسيوي منهم يكون أردء ما يمكن ، لكن إذا رأينا إزاء ذلك صور مارشال ''تومشنكو'' و مارشال ''كونيف'' وجدناهما متحلين بأثمن الاوسمة، و زيهما أيضا من أفخم الأزياء ، إن ثمن وسام المارشال ستون ألف روبية ، إن هذا الوسام الذهبى الثمين وحده يكفى لاجتثاث جذور المساواة الاقتصادية فى روسيا .

ابطال واقعى لادعاء المساواة

ثم المساواة التى تدعى الشيوعية بوجودها ، يمكن أن نعرف مدى حقيقتها بالحفلة الزاخرة العامرة التى أقامها ستالين للحفاوة بالسيد تشرشل خلال الحرب العالمية الثانية، و قد أعدت لها عشرات الأطعمة الشهية التى تناولها ستالين و الضيوف الآخرون فى هذه الحفلة، و قيل إن تشرشل بعد أن رجع الى وطنه ذكر فى بعض المناسبات قائلا : ''ليست الأطعمة التى أكلتها فى حفلة الحكومة البرولتارية متاحة لى فى وطنى الرأسمالي''. فان كانت المساواة المزعومة حقيقية ، فهل كل واحد من سكان موسكو يتناول ستين لونا من الطعام ؟ و إن لم يكن كذلك ، فهذه الحقائق إن دلت على شيء فانما تدل على أن قضية

المساواة الحقيقية لم تجـد حلا بعد و لن تجـد الى الحل سبيلا ، و لا يصح أن تقولوا أن الحفـلات فى إنجلـترا خلال الحرب كانت أبسط ما تكـون . على كل حال إن حفلـة بسيطـة كانت كافيـة لتلك المناسبـة، لكن الحق أن الحكومة الروسية كانت تهدف بها الى إظهار الابهة و العظمـة ، و هـذه العاطفـة هى التى تدفع نحـو سحق روح المساواة ، و أيضا يتبين من ذلك أن معانى المساواة فى روسيا الآن فى طريق التطور المتدرج، و أن طبقة جديدة من الاغنياء تتطرق نحو الظهور ، و هى متأسسة على أصحاب الحظوة لدى الحزب الشيوعي فمساواتهم قد تطورت ، غير أن المبدأ هو كما كان لم يتغير .

و قد لقينا شهادة أخرى على عدم المساواة فى روسيا خلال مراجعة هـذه المحاضرة ، و أريد أن أسجلها هنـا ، لانهـا تلقى ضوءا على هذه الناحية من مقالى . و لقد نشرت جريدة ،،Sun،، الاسترالية عن مراسلها فى ،، كنبرا ،، أن الوزير الاسترالي المفوض فى روسيـا قد صرح أثنـاء إجازتـه فى اجتماع الهيئـة البريطانيـة الاستراليـة للمراقبة ما يلى من الحقائق :

١ - إن طائفـة جديدة من الاغنياء بروسيا فى طريق الظهور، لان الشخصيـات البـارزة من أعضـاء الحزب الشيـوعي و الخـبراء الصناعيون يلقون معاملة ممتازة فى كل مكان .

٢ - إن المطاعم تعـد خمسة ألوان من الاطعمـة التى بطاقاتها توزع بين أعضاء الحزب الشيوعي حسب الحظوة الخاصة و نوع العمـل ، أى أن الدرجـة الاولى من العمال يستحقون الطعـام من الدرجة الاولى ، و الدرجة الثـانية تلقى الطعام من الدرجة الثانيـة ، و هلم جرا .

٣ - هـذا التفريق فى المعاملة قد أدى الى ظهور الفروق بين أفراد الشعب كما كانت واضحة جلية فى عصر قيصر روسيا .

٤ - بينما السوق السوداء تدار فى البلاد الاخرى بيد التجار الخونة ، هى تدار فى روسيا بيد الحكومة نفسها علانية .

٥ - و نتيجة كل ذلك أن أصحاب المناصب العالية فى روسيا يستطيعون الحصول على كل شيء ، بينما العامل العادي محروم من ضروراته الحيوية .

إن الوزير الاسترالي المفوض فى روسيا قد أبدى التأسف على نشر تصريحه ، و كتب أن المسؤلين عن نشره قـد حاولوا إثارة الاختلال فى صلاتنا بروسيا ، لكنه لم يكذب نص التصريح . الامر الذى ينم على أن الانكار سياسي و ليس بحقيقي .

هـذا الخبر ليدعم و يصدق ما أبديت فى هذه المحاضرة من القياس عن مستقبل روسيا ، من أن ظهور طبقة جديدة من الاغنياء فى روسيا لا بد منه ، لان المواهب و الكفاءات لا يمكن أن يغض عنها النظر . و من الواضح جـدا أن الشيوعية تعوزها تلك القيود الاسلامية الرادعة لهذه الطبقة البارزة ، فلذلك لا بـد من أن تدفع هذه الطبقة الدول الشيوعية الى المبادئ البالية ، و سيكون هدف الثورة الشيوعية الوحيد أن تنال روسيا مكانة مرموقـة بين دول العالم و سيكون مصيرها النهائي أن تصبح رأسمالية رابحـة كسائر الدول الرأسمالية ، و إن مبـدأ البرولتاريـة العالمية أى حكومة الجماهير سيتحول الى حلم لن يلقى التعبير أبـدا ، لان الفلسفة الشيوعية لا تتأسس على مواساة الانسانية بل إنما هى قائمـة على مبدأ الانتقام من الحكومة القيصرية .

المستوى الثقافى للجنود الروس

و بهذه المناسبة أريد أن ألم إلماما غير مباشر بالوضع الثقافى للجنود الروس. و لقد أخبرت بأن قطارا محملا بالبنزين كان يمر بايران، فرأى الجنود الروس أن برميلا كبيرا من القطار قد انثقب و أخذ يسيل ما بداخله، فظن الجنود أنه نوع من خمر "رم" أو البيرة، فأخذوا يحتسونه على أنه خمر، و شربه حوالى ألف جندي، و عشرات منهم هلكوا بهذا السم، و مئات منهم مرضوا. هذا أسوء مثل للخدمة الشعبية، و إن نسيان هذا العدد من الجنود واجبهم و خيانتهم فى أموال الحكومة فضلا عن حفظها ليدل على أن الوضع الاقتصادي للجنود أيضا كان منحطا الى درجة لا تجنبهم عن تحقيق أطماعهم الحقيقية أو الوهمية. هذا الحادث ليبين أن وضع الجنود الروس فى إيران على الاقل لم يمسه تغيير من قبل الحكومة الروسية.

بعض الاسئلة الموجهة الى المساواة الشيوعية التى تستدعى الحل

أما من الصناعة فنتساءل، هل كل صناعة تحتاج الى نوع واحد من العمل؟ إن معدن الفحم يحتاج الى عمل يختلف عن عمل تاجر فى متجره، و كذلك يمكن أن نتساءل أن الخياط يحتاج الى رأسمال يختلف عن رأسمال الجواهرى، فما هو الحل الذى تقدمه الشيوعية لهذه المشكلة؟ و أيضا هل رؤوس أموال المتاجر و المخازن كلها للحكومة، و تجارة روسيا كلها بيدها أيضا؟ ثم هل أتعاب المحامى البارع و المحامى الجاهل و الطبيب البارع و الطبيب الجاهل متساوية أم متفاوتة؟ و إن كانت متفاوتة فلماذا؟ و إن لم تكن، فنتساءل هل الناس كلهم يذهبون الى الطبيب البارع؟ و إن كان كذلك،

فمن المستحيل أن يداوي كلهم ، فما هو المنفذ من هذه المشكلة ؟ أو هل الناس كلهم يقصدون الى المحامى البارع ؟ فان فعلوا فمن المستحيل أن يتناول جميع قضاياهم ، فان لن يتناول فكيف ينتخب منها ما يشاء و لماذا ؟ و عشرات من أمثال هذه الاسئلة تدعو الى التفكير المؤدى الى العلم بحقيقة المساواة ، و لا يمكن العلم بها إلا بحل هذه الاسئلة ، لكن ليس لنا الى حلها من سبيل ، و الشيوعيون هم المخطئون فى الادعاء بالمساواة ما لم يقدموا لنا حلا مقنعا لهذه المشاكل .

النظام الاقتصادى الصحيح

إننى أرى أن التفكير فيما ذكرت من الحقائق سيؤدى كل إنسان حصيف الى أن النظام الاقتصادي الحقيقي هو الذى يتسع للدين كل الاتساع ، لان النظم الاقتصادية القصيرة الامد لا يصح أن يضحى لاجلها بنظام الاقتصاد الذى يعم تأثيره الحياة الابدية للانسان ، و النظم الاقتصادية الجديرة بالمدح هي التى تملك الوسائل الكفيلة بتهيئة الضرورات الحيوية لكل إنسان مع اتساعها لتقدم فردي محدود لاجل إثارة التنافس الصالح ، و للقضاء على التنافس المنكر .

و الحق أن الشيوعية رد فعل لاضطهاد مديد ، ولذلك هي ناجحة فى مواطن الظلم و ليست بناجحة فى أمريكا و إنجلترا و غيرها ، و كذلك هي فاشلة فى المناطق التى تحكمها النظم القومية أو الاشتراكية . إن جريدة أمريكية وجهت قبل بضعة أشهر سؤالا الى العمال ، و هو أنكم هل تعدون أنفسكم من الرأسماليين أم من الطبقة المتوسطة ؟ و كانت معظم الردود على ذلك تتضمن "أننا نرى أنفسنا من الطبقة المتوسطة" ـــ الامر الذى يدل على أن

العامل الامريكي لا يظن بل لا يخيل اليه أنه من الفقراء، و لهذا السبب نفسه إن الشيوعية فى أمريكا قد لقيت فشلا أشد مما لقيته فى إنجلترا لانها تملك ثروات واسعة غزيرة، و لاجل هذه الغزارة عمالها لا يكادون يشعرون بالفقر أو الحاجة الى نظام أجنبى يكفل لهم الغذاء و الكساء.

فالعلاج الحقيقي لهذه المشاكل هو :

١ - أن نمنح الفقراء حقوقهم حسب التعاليم الاسلامية.

٢ - أن يشجعوا على تحقيق آمالهم، كما فعلت ألمانيا و إيطاليا إذ إنها لم تقدما المال لرعيتها، بل قدمتا لهم التشجيع و الطموح الذى جعلهم يعدون أنفسهم من الشعوب الغالبة المنتصرة. إن إثارة الحماس للتقدم على غاية من الاهمية، إن الشعب الذى تخمد فيه جذوة الطموح و تتلاشى آماله و تهمد عواطفه و تصرف النظر عن حقوق الفقراء، فان مصيره هو الدمار المحتم.

واجبات الاغنياء نحو ضرورات الفقراء

فعلى أغنياء وطننا أن ينتبهوا لمسؤليتهم، و يقوموا بتأدية الحقوق المفروضة عليهم بصدد الفقراء. و إننى لأرى أن الشيوعية لهي سوط العذاب الذى صب على أهل الدنيا لاجل عدوان الاغنياء المتواصل على الفقراء، لكن اليوم أيضا لم تفتنا الفرصة بعد لان يقوموا باصلاحهم، و يتوبوا الى الله عن خطاياهم الماضية، فاذا لم يتطوعوا بأداء حقوق الفقراء، انتزع الله منهم أموالهم جزاء لما فرطوا، لكنهم إذا تابوا و اهتموا باصلاح أنفسهم، تحولت عنهم هذه الكارثة التى تحلق على رؤوسهم كما تتحول العاصفة الهوجاء عن قطر الى آخر. فالآن لكم الخيرة فى أن تتمسكوا بيد العطف

الالهي التى مدت اليكم فى احترام و خضوع و تبـذلوا أمـوالكم لخير الفقراء ، أو تستعدوا لاحتمال سخط الله ، و تكتنزوا ثروتكم التى سيرسل عليها الله الثوار و الغوغاء يختطفونهـا منكم . و فى الختام أستلفت أنظاركم الى أمر هام يجب أن نلاحظه عند التفكير فى تقدم الشيوعية و النظام الاقتصادي الروسي، و ذلك الخبر الهام قد أخبر به فى ظروف لم يكن يحلم فيها بالنظام الروسي الجديد .

نبأ خطير عن روسيا قبل ألفين وخمسمأة سنة

ما هي روسيا ؟ هى بلد ظفر بمكانته و أهميته خلال ثلاثة قرون أو أربعة ، و قبل ذلك كان الشعب الروسي أشتاتا ، و كانت هناك بضع قبائل بددا ، و كل قبيلة كانت تستقل بمنطقة صغيرة ، لكنها أيضا لم تكن ذات سيطرة فيها ، و كانت روسيا قبل ألف سنة خاملة مجهولة و كانت خرابا لا يلتفت اليها أحد لاجل تفاهتها و خرابها ، و كانت قبل ألفين و خمسمائة بحيث لا يعرفها أحد إلا من شذ و ندر من علماء الجغرافيا ، على كل حال كانت عندئذ فى هوة سحيقة من الخمول لاجل قفورتها و خرابها ، حتى كان لا يكاد أحد يتوجه نحوها فى تلك الاحقاب المجهولة البعيدة . عندما لم تكن لروسيا أية أهمية تنبأ بني الله حزقيل قبل اليوم بألفين و خمسمائة سنة بنبأ عظيم ما زال مسجلا فى صحف العهد القديم ، قد فصل ذلك فى الاصحاحين ٣٨ و ٣٩ من كتاب حزقيل كما يلى :

و كان إلي كلام الرب قائلا — يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك و توبال و تنبأ عليه، و قال هكذا قال السيد الرب، هأنذا عليك يا جوج رئيس روش ماشك و توبال .

و أرجعك وأضع شكائم فى فكيك و أخرجك و كل جيشك خيلا و فرسانا كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس و مجان كلهم ممسكين السيوف ، فارس و كوش و فوط معهم كلهم بمجن و خوذة . و جومر و كل جيوشه و بيت توجرمة من أقاصى الشمال مع كل جيشه شعوبا كثيرين معك . إستعد و هى لنفسك أنت و كل جماعاتك المجتمعة اليك فصرت لهم موقرا، بعد أيام كثيرة تفتقد فى السنين الاخيرة تأتى الى الارض المستردة من السيف المجموعة من شعوب كثيرة على جبال إسرائيل التى كانت دائما خربة . للذين أخرجوا من الشعوب و سكنوا آمنين كلهم ـ و تصعد و تأتى كزوبعة و تكون كسحابة تغشى الارض أنت و كل جيوشك و شعوب كثيرون معك ـ هكذا قال السيد الرب ـ و يكون فى ذلك اليوم أن أمورا تخطر ببالك فتفكر فكرا رديئا ، و تقول إنى مصعد على أرض عراء ، آتى الهادئين الساكنين فى أمن كلهم ساكنون بغير سور و ليس لهم عارضة و لا مصاريع لسلب السلب و لغنم الغنيمة لرد يدك على خرب معمورة و على شعب مجموع من الامم المقتنين ماشية و قنية الساكن فى أعالى الارض ، شبا و ددان و تجار ترشيش و كل أشبالها يقولون لك هل لسلب سلب أنت جاىء هل لغنم غنيمة جمعت جماعتك لحمل الفضة و الذهب لاخذ الماشية و القنية لنهب نهب عظيم .

ـ لذلك تنبأ يا ابن آدم و قل لجوج ـ هكذا قال السيد الرب ـ فى ذلك اليوم عند سكنى شعبى إسرائيل آمنين ، أفلا تعلم و تأتى من موضعك من أقاصى الشمال أنت

و شعوب كثيرون معك كلهم راكبون خيلا جماعة عظيمة و جيش كثير ، و تصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشى الارض ، فى الايام الاخيرة يكون و آتى بك على أرض لكى تعرفني الامم حين أتقدس فيك أمام أعينهم يا جوج .

هكذا قال السيد الرب هل أنت هو الذى تكلمت عنه فى الايام القديمة عن عبيدى أنبياء إسرائيل الذين تنبأوا فى تلك الايام سنينا أن آتى بك عليهم و يكون فى ذلك اليوم يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل — يقول السيد الرب إن غضبي يصعد فى أنفي و فى غيرتى فى نار سخطى تكلمت أنه فى ذلك اليوم يكون رعش عظيم فى أرض إسرائيل — فترعش أمامى سمك البحر و طيور السماء و وحوش الحقل و الدابات التى تدب على الارض و كل الناس الذين على وجه الارض و تندك الجبال و تسقط المعاقل و تسقط كل الاسوار الى الارض ، و أستدعى السيف عليه فى كل جبالى — يقول السيد الرب — فيكون سيف كل واحد على أخيه، و أعاقبه بالوباء و بالدم و أمطر عليه و على جيشه و على الشعوب الكثيرة الذين معه مطرا جارفا و حجارة برد عظيمة و نارا و كبريتا ، فأتعظم و أتقدس و أعرف فى عيون أمم كثيرة فيعلمون أنى أنا الرب .

و أنت يا ابن آدم تنبأ على جوج و قل هكذا قال السيد الرب . هأنذا عليك يا جوج رئيس روش ماشك و توبال و اردك و اتورك و أصعدك من أقاصى الشمال و آتى بك على جبال إسرائيل و اضرب قوسك من يدك

اليسرى و أسقط سهامك من يدك اليمنى فتسقط على جبال إسرائيل و أنت و كل جيشك و الشعوب الذين معك. أبذلك مأكلا للطيور الكاسرة من كل نوع و لوحوش الحقل على وجه الحقل تسقط لانى تكلمت ــ يقول السيد الرب، و أرسل نارا على ماجوج و على الساكنين فى الجزائر آمنين فيعلمون أنى أنا الرب، و أعرف باسمى المقدس فى و سط شعبى إسرائيل و لا أدع اسمي المقدس ينجس بعد، فتعلم الامم أنى أنا الرب قدوس إسرائيل. ها هو قد أتى و صار، يقول السيد الرب، هذا هو اليوم الذى تكلمت عنه و يخرج سكان من إسرائيل و يشعلون و يحرقون السلاح و المجان و الاتراس و القصي و الهام و الحراب و الرماح و يوقدون بها النار سبع سنين، فلا يأخذون من الحقل عودا و لا يحتطبون من الوعور لانهم يحرقون السلاح بالنار و ينهبون الذين نهبوهم و يسلبون الذين سلبوهم، يقول السيد الرب. و يكون فى ذلك اليوم انى أعطى جوجا موضعا هناك للقبر فى إسرائيل و وادى عباريم بشرقي البحر فيسد نفس العابرين و هناك يدفنون جوجا و جمهوره كله و يسمونه وادي جمهور جوج و يقبرهم بيت إسرائيل ليطهروا الارض سبعة أشهر كل شعب الارض يقبرون و يكون لهم يوم تمجيدى مشهورا ــ يقول السيد الرب ــ و يفرزون أناسا مستديمين عابرين فى الارض قابرين مع العابرين، اولئك الذين بقوا على وجه الارض تطهيرا لها. بعد سبعة أشهر يفصحون فيعبر العابرون فى الارض، و إذا رأى أحد عظم إنسان يبني بجانبه هوة حتى يقبره

القابرون فى وادي جمهور جوج ، و أيضا اسم المدينة هموناة ـ فيطهرون الارض.

و أنت يا ابن آدم هكذا قال السيد الرب. قل لطائر كل جناح و لكل وحوش البر اجتمعوا و تعالوا احتشدوا من كل جهة الى ذبيحتي التى أنا ذابحها لكم ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحما و تشربوا دما. تأكلون لحم الجبابرة و تشربون دم رؤساء الارض، كباش و حملان و أعتدة و تيران كلها من مسمنات باشان، و تأكلون الشحم الى الشبع و تشربون الدم الى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم فتشبعون على مائدتى من الخيل و المركبات و الجبابرة و كل رجال الحرب، يقول السيد الرب. و أجعل مجدى فى الامم و جميع الامم يرون حكمي الذى أجريته و يدى التى جعلتها عليهم.

و الآن انظروا و فكروا كيف تنبأ حزقيل النبى حينما لم يكن أحد يعرف روسيا و عند ما لم يكن فى حسبان أحد أن ستقدم تقدما تسود به سائر العالم، إنه أخبر قائلا:

يا ملك روش و موسكو و طوبالسك، إن إلهك يقول إننى سأزيدك فى أواخر أيام الدنيا قوة و منعة و عظمة زيادة خارقة حتى أنك فى نشوة القوة المتزائدة و الشوكة المتوسعة ستسعى الاستيلاء على البلاد الاجنبية، و تحاول استلاب أموالها و دوابها، حتى أنك ستسيطر على فارس أيضا (و هذه السيطرة فى طريق التحقق بمطالبة روسيا حقها فى منابع فارس)، فيا ملك "روش و موسكو و طوبالسك" إنك ستخرج من بلدك لتنهب

ثروات البلاد الاجنبية و تستولى على ذهبها و فضتها و تستلب أموالها و ماشيتها (و هذا الجزء من النبأ ليدل على أن النظام الاقتصادى الشيوعي هو أشد خطرا للبلاد الاخرى من سائر النظم السابقة)، و إنك لتواصل الزحف و الهجوم على البلاد الاخرى حتى أنك ستقصد الى التسلط على أورشليم العازلة عن وسائل الدفاع، و عندئذ سيلتهب غضبي عليك و أمطر عليك النيران و الكبريت، و إنني سأطعنك بالخناجر حتى أمزق فمك و فكيك، و إنني أدركك و أبيدك، حتى تمتلئ الغابات بجثث أمواتكم و سيحفر الناس شهورا لدفنهم.

إنني أعلن للذين لا يعتقدون بالانباء السماوية، أنه إن لم يكن للدنيا من إله يطلع أنبياءه على الغيب، فمن الذى أخبر النبي حزقيل قبل ألفين و خمسمائة سنة بأن روسيا ستصير يوما قوة عظمى و تهجم على البلاد الاخرى لاجل استلاب ذهبها و فضتها، وسوف تغشاها كالسحاب المطبق، لكن لا يلبث أن يثور عليها غضب الله فتصير عرضة لعذاب الله حتى تبيد عن آخرها؟ إن التفكير فى هذه الحقيقة لا يمكن أن يوجه الانسان إلا الى الاعتراف بأن الله وحده يخبر بالغيب. فان كان للدنيا اله واحد، و هو الذى أخبر حزقيل بهذا النبأ الذى ما زال مكتوبا فى التوراة، فلا يعنى هذا الخبر قبل ألفين و خمسمائة سنة إلا أن الله العلي القدير لا يرضى ببقاء هذا النظام الشيوعي فى العالم.

نبأ حضرة مؤسس الحركة الاحمدية عليه السلام عن روسيا

و الآن لتستمعوا الى نبأ جديد، إن حضرة المؤسس عليه

الصلاة و السلام قد أخبره الله فى هـذا العصر عن قيصر روسيا، بأنـه سيصاب بعذاب أليم، كما قال حضرتـه فى بعض أشعاره الاردوية :

”زار بهى هوگا تو هوگا اس گهڑى با حال زار،،

أى أن قيصر روسيا أيضا سيكون فى تلك الساعة العصيبة بحال يرثى لها . فطبق هـذا النبأ إن الشيوعيين فى روسيا عذبوا قيصر و سيدات عائلتـه أشد التعذيب، و قتلوه و إياهن شر قتلـة بعد الاعتداء عليهن اعتداء وحشيا، و تلك الحوادث الاليمة القاسيـة لتذوب لها اليوم أيضا قلوب ألد أعداء قيصر و ترتعد فرائصهم . و علاوة على هـذا الخبر قد أخبر الله مؤسس الحركـة الاحمدية عليه الصلاة و السلام بنبأ آخر و هو كما يلى تعريبه :

> إننى رأيت فى ٢٢ ينـاير ١٩٠٣م بحالـة الكشف أن عصا قيصر روسيا بيدى، هي طويلة رائعة الجال، فأمعنت فيها النظر، فوجدتها بندوقية و لكنها لا يبدو لى كبندوقية و فيها أنابيب سرية، فكأنها تبدو بالظاهر كعصا، لكنها بندوقية أيضا . (التذكرة ص : ٤٢٩)

إن إعطاء عصا حكومة فى الرؤيا عبارة عن الفوز بالسلطان و السيطرة على تلك البلاد، فكما أن نبأ حزقيل يدل على أن هـذا النظام الاقتصادي الشيوعي لن يرضى الله ببقائه فى العالم، و أن أصحابه الذين يتولون تنفيذه سيتعرضون لاشد العذاب الذى سيجعلهم عبرة لسائر الدنيا إذا لم يتوبوا الى الله عن ذلك، ولم يكفوا عن التدخل فى شؤون البلاد الاخرى . حضرة مؤسس الحركـة الاحمدية عليـه السلام قد أخبر من الله العليم الخبير، بأن نظام

روسيا أيضا سيخضع لتصرفنا و سيفوض الينا القيام باصلاحه. هذه الانباء من قبل إله العالمين، و هى أخبرت فى حين لم تكن تبدو فيه أية عوامل لظهورها أو تحققها، و لا تبدو لنا الآن أيضا. إن نبأ حزقيل النبي ألقى اليه قبل المسيح الناصري عليه السلام بستمائة عام حينما لم يكن أحد يعرف روسيا، و لم يكن الممكن أيضا أن يخطر ببال أحد أنها ستنال قوة تتدخل بها فى شؤون البلاد الاخرى، وتستولى بها على ذهبها و فضتها. ففكروا الآن أيها المستمعون، ما أعظم هذا النبأ الذى أنبئ عن روسيا، ثم إن نبأ حضرة مؤسس الحركة الاحمدية عليه الصلاة و السلام مقدم اليكم هو يتضمن خبرا بهلاك قيصر، و الدنيا شاهدة على أن نبأه قد تحقق، و نباؤه الثانى هو أن حكومة روسيا ستطور تطورا عظيما تنتقل به عصا حكومتها الى يد حضرة المسيح الموعود عليه الصلاة و السلام. فكما رأى سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم أنه أعطى مفاتيح كنوز كسري و قيصر، لكن تلك المفاتيح أعطيت عمر بدلا منه، فكذلك إن عصا قيصر روسيا، و إن قدمت فى الرؤيا لحضرة مؤسس الحركة الاحمدية عليه الصلاة و السلام مباشرة، لكن أخبار الانبياء لا تحقق كلها بوجودهم، بل إن معظمها يتحقق بواسطة أتباعهم، و هذا النبأ الاخير أيضا سيظهر بهذه الصورة، و ليس ذلك بأمر خيالي، بل إننا نتيقن يقينا أكيدا بأن الله قد ولانا إصلاح مفاسد روسيا و تعديل نظامها، و سيطبق أهل روسيا بعد إسلامهم يوما من الايام النظام الذى تضطلع به الجماعة الاحمدية، و إن الخطر الشيوعي المتهدد سيزول عاجلا أو آجلا، و إن العالم سيتبين أن إصلاح فساد الدنيا و علاج آلامها منوط بالتعاليم الاسلامية وحدها.

رؤيا آخرى عن انهيار الشيوعية

رأيت فى المنام قبل أربعة و عشرين عاما أننى قائم فى ميدان واسع ، فاذا أنا بجني ضخم بصورة أفعى عظيمة تسعى الي من بعيد، إن طولها يتراوح بين عشرة و عشرين ذراعا و عرضها كعرض ساق دوحة عظيمة، و رأيتها تتقدم الي بسرعة ، و يبدو كأنها آتية من نهايه الدنيا و تأتى على كل ما يعترض طريقها من الاحياء حتى وصلت الى المكان الذى كنا فيه . فرأيتها و هى تبتلع الناس، أنها سعت وراء أحمدي ، فالاحمدي أخذ يهرب أمامها و هى تلاحقه ، فلما رأيتها بهذه الصورة طاردتها و بيدي عصا ، لكننى أشعر فى الرؤيا أننى لا أستطيع أن أسعى بسرعة كما تسعى الافعى ، و كلما أخطو نحوها خطوة سبقتنى بعشر خطوات ، على كل حال واصلت السعي حتي رأيت ذلك الاحمدى أنه وصل الى شجرة فتسلقها بسرعة ، و ظن أنه سينجو من الافعى بهذا الطريق ، لكنه لم يكد يصل منتصف الشجرة حتي فاجأته الافعى فابتلعته ، فكرت علي غاضبة لانى كنت أردت تخليص ذلك الاحمدي منها ، و لما هجمت علي رأيت بقربي هيكل سرير خشبي غير منسوج ، و عندما اقتربت الافعى الي، فقزت الى السرير فقمت على هيكله واضعا كلا من قدمي على جانبيه ، فلما رأى الناس أن الافعى تقترب الي قالوا لى : لا يمكنك أن تقاومها ، لان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد سبق أن قال : ,,لا يدان لاحد لقتالها،، . فعندئذ أدركت أن هجوم الافعى إنما يعنى هجوم يأجوج و مأجوج ، لان هذا الحديث النبوي يتصل بها ، و عندئذ أظن أيضا أن هذا هو الدجال أيضا ، و خلال ذلك زادت الافعى اقترابا الي ، فرفعت يدى الى السماء و أخذت أبتهل الى الله بالدعاء . و فى هذه الاثناء أقول للاحمديين الذين منعونى من مقاومة الافعي قائلين إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد سبق أن قال

إنه لا يمكن لاحد فى العالم أن يناضل يأجوج و مأجوج، فقلت لهم : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما قال لا يدان لاحد لقتالها ، أى ليست هناك من يد تقاومها لكننى لم أرفع يدى للمقاومة ، إنما رفعتها الى الله تعالى ، و لم ينكر رسول الله صلى الله عليه و سلم رفع اليدين الى الله و طلب الانتصار منه ، فبدأت عندئذ بالدعاء قائلا : اللهم إنى لا أملك قوة على نضال هذه الفتنة ، لكنك مصدر كل قوة و طاقة ، إننى أتضرع اليك أن تكشف عنا هذه الفتنة فلما دعوت الله بهذا التضرع ، فاذاً رأيت أن تغيرا سماويا أخذ يطرأ على تلك الافعى كما تتغير و تذوب الدودة البرية بالقاء الملح عليها ، فأخذت تخف ثورة الافعى حتى استلقت بهدوء و عندئذ رأيتها فاذا هى كغدة ، فصارت كماء سال وانتهى ، وآنئذ قلت لاصحابى : انظروا الآن ، ما أقوى تأثير الدعاء ، و لا شك بأننى كنت عاجزا عن مقاومتها ، لكن الله ربى كان يقدر على تبديد هذا الخطر .

أمر جدير بالذكر

و مما ينبغى أن لا يغيب عن بالكم أننا لسنا أعداء لاحد ، إنما نحن ناصحون للجميع ، و لا نضمر فى قرارة قلوبنا العداء لاحد، حتى و لا لالد أعدائنا . إنما نريد أن تنتصر الاخلاق الحسنة فى العالم و تزدهر الروحانية الدينية، و تتأسس حكومة الله و رسوله . إنما نبغى أن نظام اقتصاديا كان أو سياسيا ، ثقافيا كان أو اجتماعيا يجب أن يتسع لله تعالى و رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم، و لا يحول دون اتباع الناس أحكامها . فاننا لسنا أعداء لروسيا و لا للشيوعية ، بل إننى أكن لروسيا المواساة من صميم فؤادى ، و إنى لاتمنى أن يتقدم هذا الشعب الذى ظل عدة قرون هدفا للاضطهاد و الظلم و تدول أيامه السود . غير أننى لا أرضى و لا يرضى كل

رجل حر باتخاذ فلسفة خاطئة أداة لتقدم بعض الشعوب و تأخر البعض الاخرى. فان اضطلع أحد من النظم العالمية بتعليمات الله و رسوله و يصبغ هيئته بصبغة إسلامية ، فاننا نرحب بدعايته كل الترحيب ، لكنه إذا لم يفعل ذلك فأتباع الدين مضطرون لرفضه، لان أزمة الجوع و إن كانت أشد الازمات، لكن الدين هو المتاع الاعز الذى للمؤمن أن يضحي به فى أي وضع كان. إننى قد التزمت فى شرح هذا الموضوع ، و غضضت البصر عن عدة أمور، لكننى مع ذلك قد أخذت وقتا غير قصير ، و إننى لوطيد الامل بأن إخوانى الاعزاء سيمعنون النظر فى الحقائق التى أمطت عنها اللثام خلال البحث عن النظم الاقتصادية الاسلامية و عواقب الشيوعية العالمية، و لا يقلدون بالاشاعات و الاراجيف، لان التطور العقلي لا بد له من تفكير جدي عادل فى جميع نواحى الموقف الذى نريد أن نتخذه حيال كل قضية نقبلها أو نرفضها لكى يكون الانسان على بصيرة من المسلك الذى يختاره ، و هذا هو الطريق الذى يؤدى العمل به الى الحق الصراح والى اجتثات الفتن من جذورها .

خلع الله علي رداء رحمته و وفقنى للتمسك بطرق إرشاده و هدايته، و وفقكم أيضا للاهتداء الى الطريق الذى يكون نافعا لانفسكم مفيدا لاولادكم و صالحا لدينكم و دنياكم أيضا. آمين

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شروط المبايعة

للانضمام الى الجماعة الاحمدية

معرباً من كلام احمد المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام

أن يتعهد كل مبايع من صميم فؤاده :

١ - أنه يجتنب الشرك حتى يدخل القبر و يواريه الثرى .

٢ - أنه لا يقرب الزنى، و يجتنب قول الزور، و خيانة الاعين، و يحترز من جميع انواع الفسق و الفجور و الظلم و الخيانة، و يتنكب عن طرق البغي و الفساد، و لا يدع الثوائر النفسانية تتغلب عليه مهما كان الداعي اليها قوياً و هاماً .

٣ - أنة يواظب على الصلوات الخمس بالالتزام تبعاً لاوامر الله تعالى و رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم و يداوم جهد المستطاع على إقامة التهجد، و الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، و طلب العفو من ربه على ذنوبه و الاستغفار، و يذكر كل يوم نعمه و مننه بخلوص قلبه، ثم يشكره عليها و يتخذ حمده و الثناء عليه ورداً له .

٤ - أنه لايؤذى أحدا من خلق الله عموماً، و المسلمين خصوصاً بثوائره النفسانية، لا بيده ولا بلسانه ولا عن طريق آخر .

٥ - أنه يكون مخلصا لله تعالى و راضيا بقضائه في جميع الاحوال حالة الترح و الفرح، و العسر و اليسر، و الضنك و النعم ويكون مستعداً لقبول كل ذلة و هوان، و تحمل كل مشقة

و عناء في سبيله ــ و لا يعرض عنه عند حلول مصيبة او نزول بلية، بل يمشي اليه قدماً .

٦ ـ أنه ينتهي عن اتباع الرسوم و العادات و الاهواء و الاماني الكاذبة ــ و يقبل حكومة القرآن المجيد على نفسه بكل معنى الكلمة ــ و يتخذ قول الله و قول الرسول صلى الله عليه و سلم دستوراً لعمله في جميع مناهج حياته .

٧ ـ أنه يطلق الكبر و الزهو طلاقا باتا ، و يقضي أيام حياته بالتواضع و الخضوع ، و يقابل الناس بالبشر ، و يعاملهم بالحلم و الخلق الحسن .

٨ ـ أنه يكون الدين و عزه ، و مواساة الاسلام أعز عنده من نفسه و ماله و أولاده و من كل ما هو عزيز لديه .

٩ ـ أنه يواسى جميع خلق الله تعالى، ويعطف عليهم ابتغاء لمرضاته ، و ينفق بقدر الامكان كل ما رزقه الله من القوى و النعم في خير أبناء جنسه و نفعهم .

١٠ ـ أنه يعقد مع هذا العبد (المسيح الموعود عليه السلام) عهد الاخوة خالصا لوجه الله تعالى على أن يطيعني في كل ما أمره به من المعروف، ثم لا يحيد عنه و لا ينكثه حتى المات ــ و يكون في هذا العقد بصورة لا تعدلها العلائق الدنيوية ، سواء كانت علائق قرابة او صداقة او عمل .

راجع اعلان "تكميل التبليغ" المنشور فى ١٢ يناير (كانون الثانى) سنة ١٨٨٩ .